رواية
أشمداي
شيطان المتعة
Designed by Marian Turkan
مريم توركان

اسم العمل: آشماداي

اسم الكاتبة: مريم توركان

نوع العمل: رواية

تدقيق لغوي: مريم توركان

تصميم الغلاف: مريم توركان

تنسيق داخلي: مريم توركان

# الإهداء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيم

"الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ۖ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ"

(268) سورة البقرة.

# الإهداء الثاني

عن أبي هريرة ــرضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى اللهُ عليه وسلّم: "مَن لا يشكر النّاس لا يشكر الله".

من هذا المُنطلق أتقدّم بأسمى آيات الشُكر والعرفان لحضرة الشاعر الكبير/ أحمد بن مشالي، على ما جادت بهِ قريحته من قصائد؛ دعمًا وفخرًا لهذا المُؤلَف.

مريم توركان

# الفصل الأوّل

ليلـــةٌ عصـــيبة علـــى حـــرب، ليلـــة لـــم يَكُـــن يتمنّاهـــا قـــط؛ إذ وضـــعتْ امرأتـــهُ جاريـــة للتـــوّ، يمـــلأ صـــراخها أرجـــاء المكـــان، ويكأنَّها تعترض على عدم ترحيبهِ بها!

(هالكـــة)، هكـــذا قـــد ســـمّاها، قبـــلَ أنْ يحملهـــا بـــينَ ذراعيـــه، ويـــذهب بهـــا إلـــى العـــراء؛ حيثُ الموءُودات.

وضـــعها جانبًـــا حتّـــى حفـــرَ لهـــا حُفـــرةً تُناســـب حجمهـــا الضـــئيل، ثُـــمَّ حملهـــا فـــإذ بهـــا لا تصرخ، فقط تنظر إليهِ بعدم تركيز.

قرّبهـــا مـــن وجهـــه، تفحـــصَ وجههـــا بعينيـــه، ثُـــمَّ اشـــتمّها فـــذرفت عينـــاه، ليهطـــل دمعـــهُ على جبينها الصغير.

بضعتي، وابنة قلبي، ما كُنتُ لأفعل هذا بكِ، لولا أنَّ خوفي عليكِ قد طغى على حُبّي لكِ.

قالها حرب وهو يحتضنها.

قد جارَ عليَّ أبي حينَ قامَ بوأد جميع أخواتي، وهُنَّ في مِثلِ عُمركِ المُقدّر ببضعة ساعات.

لكم تمنّيتُ أنْ تكونَ لي أُختًا ترويني بحنانها، فحُبّ الأُخت مُختلف، والأُخت لا تُعوَّض.

بُنيّتي، أُخيّتي، تلكَ اللفظة التي حُرمتُها بفِعلِ فاعل، الغريب في الأمرِ أنَّ الفاعل لا يلوم نفسه، بل يفخر بفعلتهِ الشنعاء، ويكأنَّهُ قد أحرزَ نصرًا على الأعداء!

أخــذَ يُقبّلهــا ويبكــي حتّــى ابتلّــت لُحــاه، ثُــمَّ وضــعها فــي الحُفــرة، وقــال: لا تُســامحيني يــا ابنتــي، فأنــا أجــبن مــن أنْ أقِــفَ فــي وجــهِ عاداتنا، وما وجدنا عليهِ آباءنا.

أهــالَ عليهــا التــراب حتّــى كفّرهــا جيّــدًا، وعادَ إلى بيته.

رأتــهُ ســالمة وهــو يبكــي فربتــت علــى كتفــهِ بحنــانٍ، وتابعــت: لا تحــزن يــا صــاحبي، فهــذا هــو حــال قبيلتنــا بــل وســائر القبائــل، هكذا وجدنا آباءنا يفعلون.

حــرب بعــدما رفــعَ بصــره إليهــا: لمــاذا يــا ابنة مالك؟

لمــاذا لا نقــفُ فــي وجــهِ مــا يُحزننــا ويُخزينا؟

سالمة تبكي ولا تردّ.

حـــرب: مـــا جِنايـــة الجاريـــة؛ كـــي نـــدفنها حيّة؟

ســـالمة بصـــوتٍ حـــزين: هـــوّن عليـــك، مـــا فعلتهُ هو الصواب.

حرب: كَيف؟

ســـالمة: لـــم يلجـــأ الأجـــداد لهـــذا الفِعـــل مـــن فـــــراغ؛ إذ يخشـــــونَ العـــــار، ويجتنبـــــونَ الفضـــائح، التـــي مـــن المُتوقـــع أنْ تتســـبّبَ فيها جارية.

حـــرب: أعلـــمُ ذلـــك، لكنَّنـــي أتمنّـــى أنْ يكـــونَ لـــي نســـل، لا أودُّ الحيـــاةَ إنْ كُنـــتُ ســـأحياها أبترًا!

سالمة: لا تعتل همًّا، سيحدُثُ ما تُريد.

حــرب: متــى؟ فهــذهِ هــي المــرّة الثالثــة التــي تضعينَ بها جارية.

سالمة: سنُحاول مرّة أُخرى يا أبا غائب.

حـــرب بـــلا مُبـــالاة: وستضـــعينَ جاريـــةً أُخرى.

سالمة: سأسأل العُزّى لتُعطيني مُرادي.

حرب: والنعم بها، هي أهلُ ذاك.

عِمتَ صباحًا يا هذا.

عِمتِ صباحًا يا هذهِ.

اسمي ماتعة.

أهلًا بكِ، من أيّ القبائلِ أنتِ؟

ماتعة: من قبيلة بني ماتع!

لم أسمع بها من قبل.

ماتعـــة بـــدلال: لكنَّنـــي الآن بـــينَ يـــديك، مـــا اسمك؟

اسمي أسد.

ماتعة بغنجٍ: وأنتَ كذلك.

أسد مُبتسمًا: ماذا تُريدين؟

ماتعـــة بغـــنجٍ زائـــد: أُريـــدُكَ ســـيّدي، أنـــا أمتـــك فلتفعل بي ما تشاء.

أسد وقد اتسعتْ حدقتاه: سيّدكِ، أنا؟

ماتعـــة بـــدلال: إنْ لـــم تَكُـــن أنـــتَ يـــا أســـدي سيّدي، فمَن يكون؟

أسد ينظر إليها ولا يردّ.

ماتعة: أينَ الخيمة؟

أسد: خيمة ماذا؟

ماتعة: خيمتك، أقصد خيمتنا!

أسد: هل تقصدينَ أنَّكِ ترغبينَ في....

ماتعة مُقاطعة: أجل يا سيّدي، أرغبُ بشدّة؛ فرجولتكَ الطاغية جعلتني لا أتمالك نفسي.

حملها أسد بينَ ذراعيه، ودخلا خيمته.

مولاتي، يا مَن تملكينَ الأمر والنهي، يا مَن تُحِبّينَ الخير.

مولاتي، يا مقصد الزائرين، ويا حاضنة المهمومين، جئتُكِ بهمّي ففرجيه، قد حملت بطني من الجواري ثلاث، وأخشى أنْ يكونَ حملي القادم كذلك، فهلّا وهبتني ذكرًا، أُباهي به.

مولاتي، انزعي من بطني مَنبت الإناث، وازرعي برحمي مَنبت الذكور؛ فأنا المُتعبة زوج عبدكِ حرب، حرب الذي

يحـــرص علـــى تقـــديمِ القـــرابين، ابتغـــاء مرضاتكِ.

ثُـــمَّ قـــدّمت قُربانهـــا كبشًـــا أملحًـــا، وعـــادت إلى خيمتها.

يكفي هذا يا امرأة.

قالها أسد وهو يستلقي على فِراشه.

ماتعة بدلال: أكرهني مولاي؟

أسد: بل أُرهقَ مولاكِ.

ماتعـــة بصـــوتٍ حـــانٍ: ســـامحني مـــولاي؛ إنْ كُنتُ قد تسبّبت في إرهاقك.

أسد مُبتسمًا: لا عليكِ، أتعلمين؟

ماتعة: ماذا؟

أســد: لــم يَحــدُثُ لــي أنْ أُرهقــتُ بهــذا الشــكل من ذي قبل!

ماتعـــة ببســـمةٍ: ومـــاذا تعنـــي بهـــذا الحـــديث مولاي؟

أســـد: أعنـــي أنَّـــكِ امـــرأة غريبـــة عـــن معشـــر النســـاء، لا مثلـــكِ امـــرأة، لا فـــي غنجـــكِ ولا قوّة تحمُّلكِ، هنيئًا لي بكِ ماتعتي.

ماتعـــة وهـــي تربـــت علـــى كَتفـــهِ بحنـــان: بـــل هنيئًا لي أنا بكَ أسدي ومولاي.

قد فعلتُ ما وعدتكَ بهِ حرب.

قالتها سالمة وهي تجلس بجواره.

حرب: هل قدّمتِ قُربانًا؟

سالمة: أجل.

حرب: وأيُّ القرابينَ قد قدّمتِ؟

سالمة: كبشًا أملحًا.

حــرب بغضــب: لكنَّــهُ آخــر كبشًــا نمتلكــهُ مــن كِباشنا.

سالمة: لا تحزن، ستعوّضنا العُزّى.

حرب: كَيف؟

سالمة مُبتسمة: حينَ تمنّ علينا بذكر.

حرب بلا مُبالاة: أرجو ذلك.

هل نويتَ شدّاد؟

قالتها وهي تُحزّم متاعها.

شدّاد بحماسٍ: أجل يا أروى.

أروى: ولماذا هو؟

شــــدّاد: هــــو ســــيّد قومــــه، وذو حســــبٍ ونســب؛ كمــا أنَّــهُ قــويّ البنيّــة، شــريف مــن الأشراف.

أروي: وهل وافقَ عليَّ؟

شـــدّاد: هـــو لا يعلـــم، ســـتذهبينَ إليـــهِ وتُخبرينهُ بالأمر.

أروى: وماذا لو رفض؟

شدّاد مُبتسمًا: لن يفعل.

أروى: ولِمَ؟

شـدّاد: لأنَّـهُ لا يـردّ طالبـة، هـو الكـريم ابـن الأكارم.

أروى: حسنًا.

شـــدّاد: لا تحرمنينـــهُ منـــكِ متـــى أرادكِ، كـــوني لـــهُ كمـــا أنـــتِ لـــي وأكثـــر، ولا تستعجلينهُ في الأمر.

أروى بصـــوتٍ حـــزين: حســـنًا، إلـــى اللقـــاء شدّاد، وغادرت.

ذهبت أروى إلى صخر، سيّد قومه، ومعها متاعها، اقتربتْ من الخيمة، ألقت عليهم التحيّة، ثُمَّ سألتهم عن سيّدهم، فخرجَ لها صخر، شابّ في ريعان شبابه، قويّ البنية، طويل القامة، عريض ما بينَ المنكبين، أبيضًا بحُمرة، كثيف الشعر مُسترسله، دقيق الأنف، خفيف اللحية.

سألها طلبها، فأخبرتهُ بأنَّ زوجها (شدّاد) قد أمرها بالمجيء إليه؛ لتستبضعَ منه.

أخذَ صخر ينظر إليها، فأعجبهُ حُسنها، سألها إنْ كانتْ تقبل بهِ، فأجابتهُ بالإيجاب، أشارَ لها على خيمةٍ تبعد عن

موقفهمـــــا عشـــــرة أمتـــــار، وأمرهـــــا أنْ تنتظرهُ هُناك.

دلفـــــت أروى الخيمـــــة، وضـــــعت متاعهـــــا جانبًـــا، ثُـــمَّ بـــدلت ثيابهـــا بثـــوبٍ يشـــفّ مـــا تحتـــه، مُظهـــرًا مفاتنهـــا، وأكحلـــت عيناهـــا، وتطيّبت.

دخـــلَ صـــخر ومـــا أنْ رآهـــا هكـــذا حتّـــى أغلـــقَ بـــاب الخيمـــة، وشـــرعَ فـــي تلبيـــة طلبهـــا هـــي وزوجها.

احمل عنّي يا أبا شديد.

قالتها وهي تقترب منه.

حمـــل عنهـــا مـــا كانـــتْ تحملـــهُ، وقـــال: مـــن أينَ أتيتِ بهذا الشعير يا عاتكة؟

عاتكـــة بعـــدما احتســـت بعـــض حســـواتٍ مـــن مـــاء: قـــد قطعـــتُ جـــديلتاي، وبعتهمـــا لامـــرأة شريفة مُقابل هذا الشعير.

أبـــا شـــديد بصـــوتٍ حـــزين: ســـامحيني يـــا عاتكـــة، قـــد عجـــزت عـــن الإنفـــاق عليـــكِ بفِعلِ مرضي.

عاتكـــة: لا تعتـــل همًّـــا، ســـتكون الأمـــور علـــى ما يُرام، أُقسِمُ لكَ بالعُزّى.

قحـــطٌ شـــديد تمـــرُّ بـــهِ مَـــن لا ســـندَ لهـــا ولا مُعيـــل، لا تـــدرِ مـــن أيـــنَ تـــأتي بالطعـــام والكسوة لأيتامها؟

وأُخـــرى اســـتولدها ســـيّدها، ثُـــمَّ طردهـــا ووليدها من بيته.

حكايا يشيبُ لها الولدان؛ فهذهِ قد ورثها ابن زوجها بعدَ وفاة أبيه، بل واستولدها مقيتًا بعدَ نكاحها!

وتلكَ طلّقها زوجها فلعنتها قبيلتها وتبرأت منها، جاعت فلم تجد مَن يُطعمها، حاولت الولوج لسوقِ العمل من خلالِ التجارة، لكنَّ الرجال قد تصدوا لها، فلزمت خيمتها حتّى ماتتْ.

مرّت الأيَّام وازدادَ وضع النساء صعوبة؛ إذ أنَّ الرجال لا يرونهُنَّ سوى وعاءٍ لإفراغِ طاقاتهم الشهوانيّة بهِ ليسَ إلَّا.

فالرجل يضرب زوجهُ نهارًا، ويُضاجعها ليلًا وكأنَّ شيئًا لم يَكُن!

ناهيكَ عن بيعهنّ في أحيانٍ كثيرة، أو المُقايضة بهنَّ، أو ورثهنَّ حال موت الزوج.

عانتْ المرأة كثيرًا ولم تجد مَن يُنصفها، ومن هذا الباب كانتْ بداية النهاية.. عن طريقِ ماتعة ابنةَ ماتع!

# الفصل الثاني

بعدَ أنْ عاشت ماتعة بصُحبةِ أسدٍ حتّى خارت قُواهُ فهلك، حوّلت خيمته لمُمارسةِ البغاء، فابتكرت طريقة لتعريف الراغبينَ بها؛ عن طريقِ وضع راية حمراء أعلى الخيمة، مَن يراها يعلم أنَّ ساكنة الخيمة بغيّ.

فجرت ماتعة ولم يُنكر عليها أحد ما فعلت، بل تسابقَ الرجال في الذهابِ إليها، حتّى كانوا يصطفونَ أمامَ خيمتها!

أعادَ أحد الرجال تدوير فكرة ماتعة، فقامَ بنصبِ خيمة ذات راية حمراء؛ وأجبرَ أمتهُ على مُمارسةِ البغاء، نظيرَ أجرٍ يُحدّدهُ هو مع الراغب.

عَلِمَ الجميع بأنَّ ماتعة صارت من الأثرياء، بعدَ أنْ عملت بممارسةِ البغاء، حتّى أنَّها نصبت خمس خيماتٍ أُخر بجانبِ خيمتها، وأطلقت عليهنَّ اسم صاحبات الرايات الحُمر.

كانتْ تطوف بالأسواقِ فإنْ أعجبتها أمة ابتاعتها من سيّدها، ثُمَّ جعلتها صاحبة من صاحباتِ الرايات الحُمر.

كما عَلِمَتْ بحاجةِ الكثيرات إلى المال، فتقرّبت إليهنَّ من خلالِ العطايا، عطايا الطعام وبعض الدراهم.

ظلّت هكذا حتّى اطمأنت لها النسوة، ثُمَّ فاتحتهُنَّ بموضوعِ العمل، سألنها عن ماهيته، فأخبرتهنَّ بأنَّهُ مُمارسة البغاء.

لـــم ينصـــعنَ لأمرهـــا فـــي بـــادئ الأمـــر، ولكـــنْ بعدَ تكرارها فعلنَ ما أرادتْ.

أنصـــتنَ لـــي جيّـــدًا، فمـــا ســـأقولهُ لكُـــنَّ لهـــو الخير بعينه.

قالتها ماتعة وهي تتوّسط مجلسهنَّ.

ماتعـــة: كُلكـــنَّ بـــلا زوج، والحيـــاة لا تكـــون حيـــاة إلَّا بصُـــحبةِ رجـــل، الرجـــل هـــو الـــذي يُعطي لحياة المرأة قيمة ومعنى.

كُلكـــنَّ قـــد جـــرّبنَ النكـــاح، ثُـــمَّ ماتـــت أزواجكم، وتركنكم بغيرِ مُتعة.

غطت النسوة وجوههنّ من الخجل.

ماتعـــة بعـــدما ضـــحكت: أتخجلـــنَ منّـــي وأنـــا امرأةٌ مثلكنَّ؟

قد مررتُ بما مررتنَّ بهِ بعدَ فقدِ الزوج، حينَ هلكَ أسد، أسدي وسيّدي، لكنْ ماذا أفعل، وقد خلقني اللَّهُ لمُتعةِ الرجل؟

فكّرتُ كثيرًا فعلمتُ أنَّ الرجال كُلّهم سواء، فإنْ ماتَ أسد فلا بُدَّ وأنْ يكونَ هُناكَ ألف أسد، لذا لا بُدَّ وأنْ أقومَ بعملي الذي خُلقتُ لأجله، لأجلِ المُتعة!

قد استشرتُ العُزّى فوافقتني الرأي، بل وأمرتني بإمتاعِ الكثير من الرجال، قدر طاقتي وتحمّلي، وسوفَ تُجازيني هي في المُقابل.

وها قد وعدت ووفت؛ إذ جازتني بالكثير من الأموال والمصوغات، حتّى جعلتني من أثرياء القوم.

وأنـــا هُنـــا لأجلكـــنَّ، لأجـــلِ إعطـــاءكنَّ بعـــض الحقـــوق التـــي حُرمتموهـــا بفقـــدِ الأزواج، لـــيسَ هـــذا فحســـب؛ بـــل وبمُقابـــل مـــادّي، مـــا رأيكنّ؟

تســـاءلت إحـــداهنَّ: ومـــاذا نفعـــل مـــع الرجـــال الذين يعرفوننا؟

ضـــحكت ماتعـــة ثُـــمَّ قالـــت: تقـــومي بإمتـــاعهم كي تذلّيهم يا امرأة.

لا تخافي شيئًا ولا أحدًا ما دُمتِ معي.

اتفقـــت ماتعـــة مـــع النســـوة، وقامـــت بتـــوزيعهنَّ علـــى الخِـــيَم، وأعطـــتهنَّ بعـــض النصائح، التي قد تزيدهنَّ غنجًا ودلالًا.

مـــرّت الأيَّـــام وحملـــت أروى مـــن صـــخر، ثُـــمَّ عـــادت إلـــى زوجهـــا شـــدّاد، بينمـــا ســـالمة لـــم

تحمـــل رغـــم تقـــديمها آخـــر كـــبش يملكـــهُ حرب كَقربانٍ للعُزّى!

قـد صـبرتُ عليـكِ رغـم حـاجتي وفقـري، لـم أجرحـكِ ولـو بـالقول، حتّـى حـينَ قـدّمتِ آخـر كِباشـي قُربانًـا للعُـزّى دونَ أنْ تأخـذي رأيي، أمَّا الآن فلتلحقي ببيتِ أهلكِ.

قالها حرب وهو غاضب.

بكـت سـالمة وبكـت حتّـى احمّـرت عيناهـا، ثُـمَّ حزّمـت متاعهـا وعـادت إلـى أهلهـا، فلمـا عَلِمـوا بطلاقهـا قـاموا بطردهـا؛ كـي لا يتحمّلوا الإنفاق عليها أو إطعامها.

جلسـت بـالعراء تنـدب حظّهـا العَسِـر، غيـر مُصدّقة بما فعلهُ حبيبها حرب.

جاءتهـا ماتعـة بعـدما عَلِمَـتْ بخبرهـا، لتُخففَ عنها مُصابها، هكذا ظنّت سالمة.

عِمتِ مساءً يا ابنةَ العمّ.

قالتها ماتعة.

سالمة: وأنتِ كذلكَ يا ابنةَ العمّ.

ماتعة: خُذي هذا الماء، رُّبما قتلكِ العطش.

سالمة: كادَ أنْ يفعل.

ماتعة: وأينَ أهلكِ؟

سالمة بصوتٍ حزين: قاموا بطردي حينَ عَلِموا بطلاقي.

ماتعة بنبرةٍ هادئة: اللعنة عليهم، لا تحزني أبدًا، تعالي معي.

سالمة: إلى أين؟

ماتعة: إلى بيتي.

سالمة: لا يا ابنةَ العمّ، ففي دخول بيتكِ شُبهةً لي.

ماتعة ضاحكة: يا ابنةَ العمّ، الكُلّ يعلم بأخلاقكِ فلا الشُبهة تقربكِ، ولا أنتِ تقربينَها.

سالمة بلا مبالاة: حسنًا، هيّا بنا.

ماتَ أبا شديد نتيجة لدغة عقرب، بكتهُ عاتكة، فلطمت الخدود، وشقت الجيوب، وحلقت رأسها، وناحت وولولت حتّى خارت قُواها.

طرقت الأبواب فلم تُفتح لها، سألت القريب والغريب إطعام يتاماها، لكنْ لا أحدَ يُجيب.

راودها ابن عمّها عن نفسها مُقابل صاعينِ من الشعير، لكنَّها زجرتهُ

وأهانت كرامته، فطردها شرّ طردة، وتقوّلَ عليها بما ليسَ فيها، حتّى جعلَ راغبي المُتعة يطرقونَ بابَ خيمتها ليلَ نهار!

عَلِمَتْ ماتعة بالخبر فذهبت إليها، ومعها بعض الشعير والشحم، والعسل واللبن.

طرقت باب خيمتها، وما أنْ رأتها عاتكة حتّى سبّتها وأغلقت في وجهها الباب، لكنَّها لم تُغادر، وأصرت على الدخول، فتحت لها عاتكة الباب، فدخلت ووضعت الأغراض جانبًا، وجالت ببصرها حتّى رأت الموقد الحطبي، فأسرعتْ لعملِ طعامٍ للصغار الذينَ يتضورونَ جوعًا.

اقتربتْ منها عاتكة والدمع يتساقط من عينيها، وربتت على يدها بحنانٍ، وتابعت: سامحيني ابنةَ العمّ.

ماتعة بنبرةٍ مُطمئنة: بل سامحيني أنتِ، لتأخري عليكِ طيلة هذهِ الفترة، فوالعُزّى لم أعلم بخبركِ غير اليوم، وما أنْ عَلِمت جئتُكِ في الحال.

عاتكة: سلمتِ لي وللعُزّى.

طهت لهم الطعام، ووضعتهُ أمامهم، ونهتهم عن تناولهِ حتّى يبرد، وما أنْ بردَ تناولوهُ بشراهة.

ابتسمت ماتعة، وقالت: لا تدعي الموتَ يسرقهم منكِ أُمّ شديد.

عاتكة بعينينِ دامعتينِ: لا حيلةَ لي أُخت العرب.

ماتعــة: كَيــف وأنــتِ تملكــينَ بضــاعة ثمينــة، بل باهظة الثمن؟

عاتكة: بضاعة ماذا؟

أخــذت ماتعــة تبّــث سُــمّها بعقــلِ عاتكــة، لكنَّهــا لــم ترضــخ لهــا، وأنكــرت عليهــا مــا تنفخهُ بآذانها كَفحيحِ أفعى.

عاتكة: ما الذي تقولينهُ يا امرأة؟

ماتعــة: أقــول الحقيقــة التــي تجهلينهــا، لكــنَّ العُــزّى ليســتْ جاهلــة مثلــكِ، هــي تعلــم جيّــدًا سبب وجودكِ في الحياة، والغرض منهُ.

لــم تقتنــع عاتكــة بكلامهــا، لكنَّهــا لــم تُنكــرهُ هذهِ المرّة.

ســألتها بخُبــثِ شَّــيطان: لمــاذا تركتــكِ العُزّى ولم تقبض روحكِ مع زوجكِ؟

وأجابت هي على نفسها: لعِلمها بوجود الكثيرين من جِنسِ زوجكِ، هُم بحاجةٍ إليكِ، وأنَّ رسالتكِ التي خُلقتِ لأجلها لم تكتمل بعد، فأنتِ خادمةٌ للعُزّى ولأوامرها.

فكّرت عاتكة بحديثها فوجدتهُ عَين الصواب، بل واقتنعت بهِ اِقتناعًا تامًّا، وسألتها عن كيفية الكسب بتلكَ الطريقة.

تبسمتْ لها ماتعة، وقالت: أهلًا بكِ صاحبة من صاحبات الرايات الحُمر.

# الفصل الثالث

وضعتْ أروى ذكرينِ وأُنثى، فرحَ شدّاد العقيم، بهم ودعا لصخرٍ بالصحةِ والعافية، لكنَّ أروى لم تَكُن فرحة؛ إذ شعرت بالحنينِ إلى صخر، وعَلِمت بأنَّ زوجها لن يدعها تذهب إليهِ بعدما وَلِدَتْ.

حملَ شدّاد أُنثاهُ بينَ ذراعيه، وذهبَ بها إلى العراء؛ حيثُ الموءُودات قديمًا.

وبعدَ أربعينَ يومًا ذهبت ماتعة لتُبارك لأروى، بعدما عَلِمتْ بكثرةِ خناقها مع زوجها، بل وبُغضها لهُ.

عَمْتِ صباحًا يا أُمّ صخر.

قالتهـا ماتعـة بعـدما وضـعت مـا تحملـهُ مـن أغراضٍ جانبًا.

أروى بعـــدما وضـــعت رضـــعيها علـــى الفـــراش: حللـــتِ أهـــلًا ووطئـــتِ ســـهلًا ماتعة.

ماتعة: ألا زلتِ ترغبينَ في صخرٍ؟

أروى بلهفةٍ: أجل.

ماتعـة: مـا المـانع مـن الـذهابِ إليـهِ لإطفـاء نار الشوق؟

أروى بصـــوتٍ حـــزين: شـــدّاد هـــو الـــذي يمنعني.

ماتعة: لا تحزني، وأنصتِ لي.

أروى بحماسٍ: كُلّي آذانٌ صاغية.

ماتعة: تأتيني في المساء، وستجدينَ ما يسرّكِ.

أروى: أبحقّ العُزّى؟

ماتعة: بحقِّ العُزّى أقولها لكِ وأنا ماتعة.

حلَّ المساء، أسرعتْ أروى إلى بيتِ ماتعة، بيتٌ حديثُ عهدٍ بالبناء، مكوّن من طابقين، بواقعِ خمس غُرفٍ بكُلِّ طابق.

وكُلّ غُرفةٍ بها فِراش ووسائد، والكثير من الخمر، بالإضافةِ لبغيٍّ من بغايا الرايات الحُمر.

دلفت أروى إحدى غُرفِ الطابق العُلوي، فوجدت صخرًا في انتظارها.

صخري، حبيبي، أشتاقُ إليكَ كثيرًا.

قالتها وهي تتحسّسُ وجهه.

صخر بعدما قبّلَ يديها: وأنا كذلكَ أشتاقُ إليكِ جميلتي.

طرقت ماتعة الباب ودلفت، وهي تحملُ بعض الطعام، وضعتهُ جانبًا وقالت: هاكَ الطعام الذي طلبتهُ سيّدي، هل تُريدُ شيئًا آخر؟

ردَّ صخر: لا.

ماتعة وهي تغمزُ لأروى: عوّضي ما فاتكِ يا امرأة، وخرجت.

أروى بصوتٍ حانٍ، وهي تنظر لعيني صخر: سأفعل.

لـــم تهنـــأ ماتعـــة حتّـــى جعلـــت مُعظـــم النســـاء يمـــتهنَ البغـــاء، ناهيـــكَ عـــن إقنـــاعهنَّ بـــأنَّهُنَّ يُطعـــنَ بـــذلكَ أمـــر العُـــزّى، بـــل ويتقـــربنَ إليها.

كمـــا ابتـــدعت أمـــرًا جديـــدًا، وهـــو عـــدم وأد بنـــات الســـفاح، والناتجـــات عـــن بغـــاء أُمّهـــاتهنَّ، وتـــربيتهنَّ حتّـــى يـــبلُغنَ المَحـــيض، ومـــن ثَـــمَّ إمتهـــانهنَّ مُمارســـةِ البغاء.

ممّـــا جعلهـــا رمـــزًا لتحريـــرِ بعـــض النســـاء مـــن أســـرِ العـــادات والتقاليـــد، كمـــا جُعلـــت مـــثلًا للمـــرأة العصـــاميّة، الفاهمـــة بـــل والمُطيعـــة لأوامـــرِ العُـــزّى، حتّـــى صـــارت نبراسًا لمَن أرادت الغنى بغيرِ مشقة.

لمّـــا اطمأنـــت ماتعـــة إلـــى حـــال صـــاحبات الرايـــات الحُمـــر، قامـــتْ بتوزيـــع مُـــدّخراتها علـــيهنَّ، ثُـــمَّ جعلـــت (ســـالمة) خليفـــةً لهـــا عليهنَّ، وسافرت إلى حيثُ جاءت.

# الفصل الرابع

عامٌ لا يَنساهُ القلب أبدًا فيكتوريا.

قالها وهو يتنّهد بصعوبة.

فيكتوريـــا بصـــوتٍ حـــزين: صـــدقتَ ألكســـندر، مَـــن يَنســـى ذلـــكَ التـــاريخ المَشْـــؤُوم؛ حيـــثُ ســـقوط الإمبراطوريـــة الرومانيّـــة الغربيّـــة، وهـــا نَحـــنُ نُعـــاني الأمرّين نتيجة ذلكَ السقوط إلى الآن.

ألكســـندر: نعـــيشُ فـــي العصـــورِ المُظلمـــة، كَوحـــوشٍ ضـــارية، لا قيمـــةَ للإنســـانِ هُنـــا، ولا محلَّ للإنسانيّة بيننا!

فيكتوريـــا: ألكســـندر، مـــا رأيُـــكَ أنْ نتنـــاول الطعام سويًّا قبلَ أنْ تذهبَ إلى عملك؟

ألكســـندر مُبتســـمًا: مُنـــذُ متـــى وأنـــا أرفـــض لأختي ووحيدتي طلبًا؟

فيكتوريـــا: قـــد صـــنعتُ لـــكَ الجـــاودار، هيّـــا لنتناولهُ مع بعض الجُبن.

ألكسندر: أنسيتِ الجعة؟

فيكتوريـــا مُبتســـمة: كيـــفَ أنســـاها وهـــي المُعين لنا على ابتلاع هذهِ الوجبة؟

ألكسندر: دامت مودّتكِ أميرتي.

فيكتوريـــا: ودُمـــتَ لـــي أخـــي وأميـــري الصغير.

بيـــتٌ مكـــوّن مـــن غُـــرفتين، إحـــداهُما للأُســـرة، والأُخـــرى للماشـــية التـــي يتربّحونَ من تربيتهم لها.

أُسِسَ من الخشب، مسقوف بالقشِّ والخلنج، بالإضافةِ إلى الطين.

حياة ريفيّة بسيطة للغاية، تعيشها تلكَ الأُسرة، يجتهدونَ لئلا يتخلّفونَ عن منطقة (البقاء على قيدِ الحياة)!

خرجت من غُرفةِ الماشية، وجلست بجوارِ زوجها الخمسيني، ضعيف البنية، مريض القلب.

ويليام، ما رأيُكَ أنْ نصنعَ طعامًا ببيضِ الدجاج، بدلًا من بيعهِ كما هو؟

قالتها (كاثرين)، امرأة ثلاثينيّة شابّة، فاتنة الجمال، رثّة الهيئة.

ويليام بصوتٍ واهن: ثُمَّ ماذا؟

كـــاثرين بحمـــاس: ثُـــمَّ نبيعـــهُ بأضـــعافِ سعره.

ويليام بلا مُبالاة: حسنًا.

كاثرين: حسنًا ماذا؟

ويليام: ليَكُن ما أردتِ.

كـــاثرين بعـــدما طبعـــت قُبلـــة حانيـــة علـــى جبينه: أُحِبُّكَ زوجي العزيز.

ويليام مُبتسمًا: وأنا أُحِبُّكِ شريكة حياتي.

جمعـــت كـــاثرين عـــددًا كبيـــرًا مـــن بَـــيضِ الـــدجاج، ثُـــمَّ قامـــت بصُـــنعِ الشـــطائر منـــه، فأقبلَ الزبائن على شرائه.

ألهذا الحدّ قد كرهني سيّدي؟

قالتها بغنجٍ وهي ترتدي ملابسها.

مسحَ توماس على شعرها، وتابع: لم يَحدُثُ عزيزتي تابيثا، لكنَّني أشعُرُ بفتورٍ في علاقتنا الخاصّة.

تابيثا بدلالٍ: ما رأيُ سيّدي أنْ أرقصَ له؟

توماس مُبتسمًا: قد فعلتِ من قبل، ولكنْ دونَ جدوى.

فكّرتْ تابيثا لفترة، ثُمَّ قالت: وجدتُها!

توماس: ما هي؟

تابيثا: سيّدي عليكَ بالتعرُّفِ على امرأةٍ أُخرى.

توماس بدهشةٍ: أمجنونةٌ أنتِ؟

تابيثا بصوتٍ حانٍ: بل عاشقة سيّدي.

توماس: أجادةٌ أنتِ؟

تابيثا: أجل سيّدي.

توماس مُداعبًا: أيُّ حُبٍّ هذا الذي يجعلكِ تقبلينَ بأنْ تحتلّ امرأةٌ أُخرى أحضان حبيبكِ؟

تابيثا بصوتٍ رخيم: حُبّ تابيثا سيّدي.

توماس: عجيبٌ أمركِ غنجائي ومُدللتي.

تابيثا: لا عجبَ في الحُبّ سيّدي وحبيبي.

توماس: صدقتِ حبيبتي.

تابيثا: سيّدي، هل تأذن لي بأنْ أختارَ لكَ مَن تستطيع إشباع رغبتك دونَ فتور؟

توماس: لكِ ما شئتِ غزالتي الشاردة.

مرّت الأيَّام وتحوّلَ بيت توماس لبيتٍ لمُمارسةِ البغاء، بعدما أقنعتهُ تابيثا بذلكَ الفِعل الشنيع.

لـم يَقبـل فـي بـادئ الأمـر، لكنَّهـا ألّحـت عليـهِ بعـدَ أوّل امـرأة جلبتهـا لـه، كانـتْ تلـكَ المـرأة أرملـة أحـد الإقطـاعيّين، ولا يحـقّ لهـا الـزواج بـآخر بعـدَ مـوتِ زوجهـا، ولـم تجـد لإشـباع رغبتهـا سـوى مـا أوحـت إليهـا بهِ تابيثا.

رَّحبـت بفكـرة تابيثـا، وظلّـت تتـردد علـى بيـتِ تومـاس بحُجـةِ مُقابلـة الخادمـة (تابيثـا)، حتّـى تعرّفـت علـى رجـلٍ آخـر فتركـت تومـاس، بعـدما أعطتـهُ الكثيـر مـن الأمـوال؛ كـي لا يُخبـرَ أحـدًا بمـا كـانَ بينهما.

علـى الجانـبِ الآخـر سـاءت حالـة ويليـام، فأنفقـت عليـهِ كـاثرين مـا كانـتْ تـدّخرهُ مـن أمـوال، ثُـمَّ باعـت الماشـية والـدجاج؛ كـي

تـــتمكن مـــن شـــراء الـــدواء المُناســـب لـــه، وفـــي نهايـــة الأمـــر مـــاتَ ويليـــام، لا مـــن المـــرض ولكـــنْ إثـــر ســـقوط ســـقف الغُرفـــة عليهِ!

صـــارت غُرفـــة الماشـــية هـــي غُرفـــة النـــوم الخاصّـــة بكـــاثرين وصـــغارها الخمـــس؛ إذ لـــم يتحمّلـــوا طقـــس الشـــتاء البـــارد فـــي غُرفتهم الخالية من السقف.

حاولـــت كـــاثرين البحـــث عـــن عمـــلٍ بشـــتّى الطُـــرق، لكنَّهـــا لـــم تجـــد؛ نظـــرًا للقحـــط الشديد، الذي يُعاني منهُ أغلب النّاس.

ســـاءت الظـــروف أكثـــر وأكثـــر، حتّـــى أنَّهـــا لـــم تجـــد مـــا تُطعـــم بـــهِ الصـــغار، بالإضـــافةِ لمـــوتِ (أوديـــن)، طفلهـــا البـــالغ مـــن العُمـــرِ ثلاثـــة أعـــوام، نتيجـــة تجرعـــهِ المـــاء؛ إذ المـــاء

مُلّوث وغير صالح للشراب، فكانتْ تبتاع لهم الجعة قبلَ أنْ تفتقر.

خرجت من الريف، وذهبت إلى المدينة بحثًا عن فُرصةِ عمل، فأولادها لن يستطيعوا التحمُّل أكثر من هذا.

دلّتها إحدى النسوة على بيتٍ كريمٍ من بيوت المدينة، مكوّن من ثلاث طوابق ومُلحق بهِ حديقة واسعة، تجمع بينَ الورود والأشجار النادرة.

طرقت الباب، فتحَ لها الخادم، يرتدي زيًّا أفضل بكثير من زيّ العُمدة خاصتهم.

أهلًا بكِ سيّدتي.

قالها رالف الخادم.

كاثرين بخجل: أهلًا بكَ سيّدي.

رالف: هلّا أخبرتني بسببِ قدومكِ إلينا؟

كـــاثرين بصـــوتٍ حـــزين: جئـــتُ أبحـــثُ عـــن عملٍ.

رالف: حسنًا، سأُخبرُ سيّدي.

أغلـــقَ رالـــف البـــاب، وغـــابَ لبضـــعة دقـــائق، ثُمَّ عادَ إليها بالخبر.

رالف: تفضّلي سيّدتي.

دخلـــت كـــاثرين البيـــت، ذُهلـــت مـــن جمـــالِ البيـــت وأناقـــة الأثـــاث، شـــعرت وكأنَّهـــا تحلـــم، حتّـــى أعادهـــا إلـــى الواقـــع صـــوت تومـــاس وهـــو يُناديهـــا: ســـيّدتي، هـــل شردتِ بذهنكِ؟

استدارت كاثرين لترى مَن هو مُحدّثها، وما أنْ فعلت حتّى اتسعتْ حدقتاها؛ إذ أعجبها حُسن توماس ووسامته.

سألها عن سببِ مجيئها، فأخبرتهُ بأنَّها بحاجةٍ إلى المال، خصوصًا بعدَ موت زوجها وفقد أحد أبنائها؛ لذا فهي تبحث عن عملٍ مُنذُ فترة.

تبسمَ لها وأضاف: هل ترغبينَ في عملٍ بعينه؟

كاثرين: لا، أرغبُ بالمتاح سيّدي.

توماس: حتّى وإنْ كانَ المُتاح هو المُتعة؟

نظرت إليهِ كاثرين بفمٍ فاغرٍ ولم تردّ.

توماس: سأُنفقُ عليكِ وعلى أبناءكِ، وأُعوّضكِ عن فقدِ زوجكِ، فما رأيكِ؟

كاثرين بعدَ دقائق: ولكنْ.....

هذهِ فرصة والفُرص لا تُعوَّض يا امرأة.

قالتها تابيثا وهي قادمة من الداخل.

تركهما توماس وصعد لغُرفتهِ بالطابق العُلوي، أخذتْ تابيثا تُلّح عليها حتّى أقنعتها بممارسةِ البغاء.

وفي نهاية اليوم عادت كاثرين إلى غُرفتها، ومعها الكثير من الطعامِ والجعة، بالإضافةِ لبعضِ الفاكهة والحَلوى.

يومًا بعدَ آخر، تحوّلت كاثرين لتاجرة رقيق أبيض ببلدتها، بعدما فتحت بيتًا

لمُمارسةِ البغاء، وجعلت من بناتها الثلاث _حديثات البلوغ، بغايا!

تاقتْ نفس أرملة الإقطاعي إلى الفلّاح (ألكسندر)، الذي يعمل بأرضِ زوجها، ذهبت إليهِ وراودتهُ عن نفسهِ غير مرّة، لكنَّهُ لم يُطاوعها؛ كي لا ينقض عهده مع أُختهِ التي تولّت تربيته بعدَ ممات أبويه.

ظلّت تُحاول معهُ حتّى أغرتهُ بالمالِ والخمر، فطاوعها وكانَ لها ما أرادتْ.

مرّت الأيَّام وانقطعَ ألكسندر عن أُختهِ فيكتوريا، فصارت تعمل كَخادمة مُقابل وجبة طعام، حتّى عثرَ عليها توماس، فأخذها إلى بيته، وخصصَ لها طابقًا كاملًا، لتُقيمَ ببعضهِ وتستقبل راغبي المُتعة ببعضهِ الآخر!

وفـــي إحـــدى صـــباحات الصـــيف، بحـــثَ تومـــاس عـــن تابيثـــا، لكنَّـــهُ لـــم يجـــدها، ســـألَ عنهـــا فـــأخبرهُ أحـــدهم أنَّـــهُ رآهـــا تهـــرب بصُـــحبةِ شـــابٍّ صـــغير، ومعهـــا صـــندوق كبيـــر، رُّبمـــا يكـــون مُخصصًـــا لحِفـــظِ المجوهرات.

صرخَ توماس: تبًّا لكِ يا عاهرة!

# الفصل الخامس

لعنةُ اللَّهِ على مَن نادى بالثورة، فالفساد الناتج عنها أكثر ممّا كانَ قبلها.

قالها دوزيه وهو ينفث التبغ.

لعنةُ اللَّهِ عليهِ وعلى مَن تَبِعهُ وصدّقه.

قالتها جين.

ثُمَّ تنَّهدت بثِقلٍ وتابعت: على الأقل كانَ الخُبز يُزيّن الموائد، أمَّا الآن فقد صارَ حِكرًا على الأثرياء؛ نَظرًا لارتفاع سعره.

دوزيه بعدما اعتدلَ في مجلسهِ: حتّى الماء الذي من المُفترض أنْ يكونَ سرًّا للحياة، صارَ هو السبب الرئيسي في فُقدانها!

جـــين: حتّـــى القائـــد نـــابليون، تركنـــا وســـافرَ مُبحـــرًا نحـــو شـــواطئ الإســـكندريّة، قاصـــدًا حماية مصالح فرنسا هُناك.

دوزيه: أُشفقُ على ذلكَ الرجل.

جين: لِمَ؟

دوزيـــه: لأنَّـــهُ قـــد أحـــبَّ جـــوزفين، فـــي حـــين أنَّها قد خانتهُ بعدَ سفره.

جين بصوتٍ حزين: يا لها من فاجرة!

دوزيه: وأيّ فاجرة؟

لـــم تحفـــظ للرجـــل غيبتـــه، بـــل لـــم تحفـــظ لـــهُ معروفـــه معهـــا، حينهـــا صـــبرَ عليهـــا رغـــم أنَّها عاقر!

خانتـــهُ فـــي نفســـها مـــع شـــابٍّ يصـــغرها فـــي العُمر، قد أخذَ حظًّا كبيرًا من الوسامة.

جـين: هـي لا تسـتحقّ كُـلّ الحُـبّ الـذي أحبّـهُ لهـا نـابليون، فقـد أحبَّهـا بقلبـهِ وعقلـه، وكُـلّ ذرّة فـي كِيانـه، يـا لـهُ مـن رجـلٍ عظيم!

دوزيه: أينَ النبيذ يا امرأة؟

جين: قد نفد.

دوزيه بغضب: ماذاااااااااا؟

جـين: كـادَ العطـش يقتلنـي، فشـربتُ آخـر قطرات كانتْ موجودة بالزجاجة.

دوزيه: لعنةُ اللَّهِ على الثورة والثائرين!

جلسـتْ بحديقـة القصـر، تنظـر إلـى الـورود وهي شاردة الذهن.

أينَ ذهبت مولاتي بخيالها؟

قالتها سيلفي وهي تبتسم.

ابتسمت لها جوزفين، وقالت: إلى قبل عامٍ يا سيلفي، وأمرتها بالجلوس.

كانتْ ليلة مُقمرة، احتجتُ فيها إلى السهر تحتَ ضوء القمر، لكنَّ زوجي (نابليون) لم يُشاركني تلكَ السهرة؛ إذ كانَ يُراجع بعض الأمور المُتعلّقة بعمله.

حينها دخلتِ أنتِ حياتي، لا أدري من أينَ أتيتِ وقتها؟!

مساءُ الخيرِ يا مولاتي.

قالها إتيان وهو ينحني.

جوزفين: أهلًا إتيان، ماذا هُناك؟

إتيان: قد أتت الخادمة الجديدة.

جوزفين: خادمة ماذا؟

إتيان: قد أرسلتها إيفلين.

جوزفين: حسنًا، أدخلها.

غابَ إتيان وعادَ بعدَ دقائق يتقدّمها.

شابّة فاتنة، ترتدي ثوبًا يُفصّل معالم جسدها تفصيلًا، حتّى أنَّ إتيان لم يُنزل بصره من عليها.

نهضت جوزفين من مكانها، وأمرت إتيان بالإنصراف، ثُمَّ أخذتْ تنظر إلى الشابّة حتّى أربكتها.

ما اسمكِ يا امرأة؟

قالتها جوزفين بحزم.

اسمي سيلفي يا مولاتي.

جوزفين: بِكْرٌ أَمْ ثَيّبٌ؟

سيلفي: بكرٌ يا مولاتي.

جوزفين: ألم تتزوّجي بعد؟

سيلفي بخجل: لا.

جوزفين: لكنَّ مظهركِ يُوحي بغير ذلك.

سيلفي: يُوحي بماذا مولاتي؟

جوزفين: يُوحي بأنَّكِ امرأة لعوب.

سيلفي بدهشةٍ: كيفَ عرفتِ مولاتي؟

جوزفين بثقة: لا يخفى عليَّ شيء، كما أنَّ وجهكِ فاضحكِ يا امرأة.

سيلفي بعينينِ دامعتينِ: قد خدعني مَن وثقتُ بهِ، وتركني بعدما أخذَ غرضهُ منّي.

جوزفين: وكيفَ تسمحينَ لهُ بفِعلِ ما فعل؟

سيلفي: قد أحببتُهُ يا مولاتي، فكُنتُ لا أرفضُ لهُ مطلبًا.

جوزفين: عن أيّ حُبٍّ تتحدّثين؟

سيلفي: عن الحُبّ الذي يسكن شغاف القلب، فيجعل الحبيب طوع أمر محبوبه.

جوزفين بدهشة: حتّى أنتِ يا خادمة تعرفينَ الحُبّ!

سيلفي: وأُمارسهُ أيضًا يا مولاتي.

جوزفين: دعكِ من غنجكِ هذا الذي تتحدّثينَ بهِ واذهبي إلى عملكِ.

سيلفي: أمر مولاتي.

مرّت الأيَّام وشعرت جوزفين بالملل في علاقتها بنابليون، فكانتْ تقضي مُعظم وقتها في الحديقة، تتجوّل بينَ طُرقاتها الرحبة، ثُمَّ تجلس وحيدة شاردة الذهن، وكأنَّها قد خسرت كُلّ ما تملك!

فـــي إحـــدى الصـــباحات رأت شـــابًّا يـــدلفُ غُرفـــة ســـيلفي، المُلحقـــة بحديقـــةِ القصـــر، فكّـــرت فـــي صِـــلة قرابتـــهِ بهـــا، لكـــنْ سُـــرعان مـــا شـــعرت بالفضـــول، فأســـرعتْ إلـــى الغُرفة.

وقفـــت أمـــامَ البـــاب، وقبـــلَ أنْ تطرقـــهُ ســـمعت تـــأوهً خارجًـــا مـــن النافـــذة المفتوحـــة، اقتربـــت مـــن النافـــذة فوجـــدت مـــا لـــم تَكُـــن تتوقـــع؛ إذ شـــاهدت ســـيلفي تُمـــارس البغـــاء مع الشابّ.

تراجعـــت للخلـــف دونَ أنْ تُصـــدرَ صـــوتًا، بـــل واختبـــأت خلـــف الغُرفـــة؛ كـــي لا يراهـــا أحـــد، ثُـــمَّ صـــعدت إلـــى غُرفتهـــا بالطـــابق العُلـــوي بعـــدما غـــادرَ الشـــابّ، وأمـــرت إتيـــان

بـــأنْ يُخبـــرَ ســـيلفي بأنَّهـــا تحتاجهـــا فـــي أمـــرٍ هام.

وبعـــدَ دقـــائق، كانـــتْ ســـيلفي تقـــف أمامهـــا مطأطأة الرأس.

أخبريني بالحقيقة يا عاهرة!

قالتها جوزفين وهي تشتاط غضبًا.

ســـيلفي بصـــوتٍ مُرتبـــك: حقيقـــة مـــاذا يـــا مولاتي؟

جـــوزفين بعـــدما اقتربـــت منهـــا: حقيقـــة الشـــابّ الوســـيم، ومـــا فعلتـــهِ معـــهُ بالغُرفـــة صباح اليوم.

سيلفي بذهول: ماذاااا؟!

جـــوزفين: قُلـــتُ لـــكِ أنَّـــهُ لا يخفـــى علـــيَّ شيء.

سيلفي باكية: اغفري لي يا مولاتي، أعدُكِ لن تتكرر.

جوزفين: ليسَ قبلَ أنْ تُخبريني بكُلِّ شيء.

أخبرتها سيلفي بكُلِّ شيءٍ، ثُمَّ تنَّهدت وقالت: وهذا كُلّ ما حَدَثَ مولاتي.

جوزفين بعدَ دقيقة: قد هدّدكِ حتّى وأنتِ في حماية المُعظم نابليون.

سيلفي: أجل مولاتي، وأجبرني على المُضاجعة.

جوزفين: ومتى سيزورك؟

سيلفي: في الغدِ كما أخبرني مولاتي.

جـــوزفين: بعـــدَ أنْ يـــدلف الغُرفـــة اخرجـــي علـــى الفـــور، وأغلقـــي عليـــهِ البـــاب مـــن الخارج، وأسرعي إليّ.

سيلفي: أمر مولاتي.

انصـــرفت ســـيلفي بعـــدما أمرتهـــا جـــوزفين، وعادت إلى غُرفتها.

أخـــذت تُغنّـــي أثنـــاء ســـيرها بالحديقـــة حتّـــى وصـــلت إلـــى بـــاب الغُرفـــة، فأخرجـــت المفتاح من جيبها وفتحت ودخلت.

أغلقـــت البـــاب خلفهـــا واســـتلقت علـــى ســـريرها، ومـــا أنْ فعلـــت حتّـــى اتســـعتْ حدقتاها، وتسارعت ضربات قلبها.

نهضت بسرعة وتساءلت في فزعٍ: أنت؟

ماذا تُريد؟

# الفصل السادس

كـانَ إتيـان قـد اختبـأ لهـا خلـف البـاب، بعـدما دلـفَ عـن طريـق المفتـاح الثـاني للغُرفـة، والذي يمتلكهُ قبلَ أنْ تأتي سيلفي.

اقتـربَ منهـا وهـو يخلـع سُـترته، وقـال: أُريدُكِ أنتِ؟

سيلفي: أجُننتَ أنت؟

إتيـان: بـل حُرمـت، حُرمـتُ النسـاء بعـدَ مـوت زوجتـي، لكنَّـكِ قـد حرّكـتِ مـا كـانَ كامنًا بداخلي.

سـيلفي تتنّهـد بصـعوبة، وصـدرها يعلـو ويهبط: إتيان لا تفعل.

إتيـان: لا تحكمـي علـيَّ قبـلَ أنْ تُجرّبـي نعيم قُربي.

نظـــرت إليـــهِ ســـيلفي، وحـــينَ رأت إصـــراره، حدّثتـــهُ بقولهـــا: حســـنًا يـــا إتيـــان، ولكـــن دعنـــي أتجهـــز لـــك، لـــن أزيـــدَ عـــن خمســـة دقائق.

إتيـــان: لـــكِ مـــا أردتِ، ولكـــنْ لا تتـــأخري فنار الشوق تأكل داخلي.

أســـرعتْ ســـيلفي إلـــى دورة الميـــاه، فبـــدلت ثوبهـــا بقمـــيصٍ للنـــوم، وأخرجـــت مـــن صـــندوق الإســـعافات الأوليّـــة زجاجـــة صغيرة، تحتوي على مُخدر البنج.

قامـــتْ بوضـــع القليـــل منهـــا علـــى منـــديلٍ لهـــا، وأخفتهُ بجيبها، ثُمَّ خرجت لإتيان.

اقتربـــتْ منـــهُ وحدّثتـــهُ بغـــنجٍ حتّـــى اطمـــأنَ لهـــا، ثُـــمَّ مثّلـــت أنَّهـــا تُريـــدُ تقبيلـــه، وحـــينَ

أغمــضَ عَينيــهِ وضــعت المنــديل علــى أنفــه، ليروحَ في سُباتٍ عميق.

مَضـــت الليلـــة، وجـــاء موعـــد الشـــابّ الوسيم.

طــرقَ البــاب، فتحــت لــهُ ســيلفي، تعانقــا، ومـــا أنْ اســـتلقى علـــى الســـرير حتّـــى خرجــت، وأغلقــت البــاب خلفهــا، وأســرعت إلى جوزفين تُبلّغها.

جوزفين بحماس: هيّا بنا إليهِ.

فتحــت لهــا ســيلفي، فــدخلت الغُرفــة وحــينَ رآها، طأطأ رأسهُ خجلًا.

جوزفين: ما اسمك؟

جوسيف.

قالها بصوتٍ مُرتبك.

سيلفي: لم يتجاوز العشرون يا مولاتي.

جوزفين بعدما تعمّقت بالنظرِ إليهِ: يبدو هذا واضحًا، ثُمَّ أمرتها بالإنصراف، وجلست بجانبهِ على السرير.

جوزفين: أمتزوج؟

جوسيف: لا.

جوزفين: لماذا لم تتزوّج وقد أوشكت على العشرين ربيعًا؟

جوسيف: ليسَ لديَّ مال، ولا أجد عملًا؛ كي أستطيع من خلالهِ الإنفاق على نفسي، ومن ثَمَّ أتزوّج.

جوزفين وقد اقتربت منهُ: هل تُحِبُّها؟

جوسيف: أُحِبُّ احتياجها لي.

أخـــذت جـــوزفين تنظـــر إليـــهِ وذهنهـــا شـــارد، حتّـــى لامـــسَ يـــدها فانتفضـــت وعـــادت مـــن شرودها.

جوزفين: ماذا فعلتَ يا هذا؟

جوســـيف: لـــم أقصـــد مـــولاتي، فقـــط خشـــيتُ أنْ يكونَ قد أصابكِ مكروه.

جـــوزفين مُبتســـمة: حســـنًا، هيّـــا اذهـــب إلـــى حيثُ جئت.

غـــادرَ جوســـيف واســـتلقت هـــي لتقيـــلَ بعـــض الوقت.

لكـــنَّ حظّهـــا العَســـر قـــد أوقعهـــا بطريـــقِ إتيان!

# الفصل السابع

دلــفَ إتيــان الغُرفــة دونَ أنْ تشــعر بــه، لــم يعلــم بأنَّهــا جــوزفين، أغلــقَ النافــذة جيّــدًا، وكــذا الضــوء، واقتــربَ منهــا، بعــدما أخــرج منــديلًا قــد وضــعَ بــهِ القليــل مــن مُخــدر البنج.

حــــاولَ أنْ يضــــعهُ عنــــدَ أنفهــــا لكنَّهــــا اســتيقظت، فوضــع يــدهُ علــى فِيهــا مُحــاولًا كتم صوتها؛ كي لا يُفتضح أمره.

حاولــت الإفــلات منــهُ حتّــى نجحــت، فقامــت وأشــعلت الضــوء، نظــرَ إليهــا ونظــرت إليه، والصمت هو سيّد الموقف.

إتيان، ما الذي تفعلهُ هُنا؟

قطعت جوزفين الصمت بهذا السؤال.

إتيـــان يتصـــبَّبُ عرقًـــا: وددتُ الإنتقـــام مـــن سيلفي.

جوزفين: إنتقام ماذا؟

إتيـــان: قـــد خـــدعتني فـــي بعـــض الأمـــور مولاتي.

جوزفين ضاحكة: يا لها من لعوب!

اذهـــب إلـــى عملـــكِ الآن، وســـأنظر فـــي أمركما فيما بعد.

مـــرّت الأيَّـــام وتغيّـــبَ نـــابليون عـــن حبيبتـــه (جـــوزفين)، بفِعـــلِ حملتـــهِ العســـكريّة علـــى مصـــر، عـــام ألـــف وســـبعمائة وثمانيـــة وتسعون.

شـــعرتْ جـــوزفين بالملـــل، أوزعـــت إليهـــا ســـيلفي بـــأنْ تُجـــدّد طاقتهـــا عـــن طريـــقِ

الحُـــبّ، لـــم تقتنـــع بفكرتهـــا، ألّحـــت عليهـــا حتّى رضيت بل ورحبت بها.

جلبـــت لهـــا شـــابًّا وســـيمًا قـــد تعـــدّى الرابعـــة والعشـــرون، أُعجبـــت بـــهِ جـــوزفين أيُّمـــا إعجـــاب، حتّـــى أنَّهـــا كافـــأت ســـيلفي علـــى فكرتها.

مـــرّت الأيَّـــام وعَلِـــمَ الجميـــع بخيانـــة جـــوزفين لزوجهـــا الغائـــب، لكنَّهـــا لـــم تخـــف ولـــم تحزن.

على الجانبِ الآخر..

ســـيّدي قـــد انتهينـــا مـــن إنشـــاء المُجمّـــع العِلمي كما أمرتنا.

قالهـــا لـــوران، وهـــو يُقـــدّم التحيّـــة العسكريّة.

نـــابليون بفخـــرٍ: حســـنًا، ولكـــنْ لا تُظهِـــروا للمصريين غير الودّ واحترام عقائدهم.

لوران: قد فعلنا سيّدي، ولكنْ....

نابليون: ماذا هُناك؟

لـــوران: قـــد لاحظـــتُ تـــردد الجنـــود علـــى بيـــتٍ بعينـــــه، فقُمـــــتُ بمُـــــراقبتهم، فوجـــــدتهم يذهبونَ لبغيٍّ؛ ليُمارسوا معها البغاء.

نابليون بغضب: ماذاااا؟

ألم تنههم يا لوران؟

لـــوران: قـــد قضـــينا عامًـــا هُنـــا يـــا ســـيّدي، وهُـــم بحاجـــةٍ إلـــى فِعـــل ذلـــكَ للتـــرويحِ عـــن النفس، وللتصبّر على فِراق الأهل.

نـــابليون: حســـنًا، ولكـــنْ اجعـــل البغايـــا تحـــت الملاحظـــة الطبيّـــة؛ كـــي لا يُصـــاب الجنـــود بأيّة أمراض.

لوران: عُلِم ويُنّفذ سيّدي.

الفقـــر يفتـــك بـــالبلاد، لا أحـــد يُراعـــي حـــقّ أحـــد، الجـــوع هـــو الـــدافع الرئيســـي لإرتكـــاب كافة الجرائم.

قـــد ضـــعفت قـــوة المـــواطن الفقيـــر، فصـــارَ كجذع نخلةٍ خاوية!

لا أحـــد يهـــتم بـــه، ولا أحـــد يســـمع شـــكواه، فقـــط يهتمـــونَ بالطبقـــاتِ العُليـــا، أمَّـــا الطبقات الدُّنيا فمصيرها إلى الهلاك.

حتّـــى الثـــورة التـــي استبشـــروا بهـــا خيـــرًا، كانـــتْ وبـــالًا علـــيهم؛ فـــالمواد الغذائيّـــة لـــم تَعُد مُتاحة للجميع كما كانتْ من قبل.

زادَ عـــدد الفُقـــراء أضـــعاف مـــا كـــانَ عليـــهِ قبـــلَ الثـــورة، انتشـــرت الأوبئـــة والأمـــراض، وكـــذا مُمارســـة البغـــاء، كمـــا زادَ عـــدد البغايا.

علـى الـرغم مـن كُـلّ هـذا، لـم تُقلـع جـوزفين عـــن أفعالهـــا الســـيئة، حتّـــى أرســـلَ أخـــا نـــابليون مكتوبًـــا يُخبـــرهُ فيـــهِ بخيانتهـــا لـــهُ، ورفقتها لشابٍّ وسيم يصغرها في العُمر.

غضـــبَ نـــابليون وقـــررَ العـــودة إلـــى فرنســـا، وقـــد عـــيّنَ جـــان باتيســـت كليبـــر خلفًـــا لـــهُ فـــي قيادة الحملة.

مولاتي، ماذا هُناكَ؟

بهذا السؤال قد أعادتها سيلفي للواقع.

جـــوزفين: لا شـــيء، مـــا الـــذي أتـــى بـــكِ، أهُناكَ خطبٌ ما؟

سيلفي: قد ابتعتُ لكِ النبيذ الذي تُفضّلينهُ مولاتي.

جوزفين مُبتسمة: شُكرًا لكِ سيلفي.

سيلفي مُبتسمة: بل شُكرًا لكِ مولاتي، لأنَّكِ قد أنقذتني من الشرير (إتيان)، بعدما قُمتِ بنفيهِ خارج البلاد.

جوزفين: يستحقّ ما حَدَثَ له.

انحنتْ لها سيلفي وانصرفت، لتتركها مع قلقها بشأنِ ما تردّدَ عن عودة نابليون.

كَيفَ ستواجهه؟

بل ما الذي ستقولهُ له؟

نابليون الذي أخلصَ لها، وأحبّها حُبًّا جمًّا، لكنَّها لم تحفظ لهُ قلبهُ ولا حُرمته.

يُقال أنَّ القائد نابليون قد سافرَ سرًّا إلى بلاده، بعدما قامَ بتعيين الجنرال كليبر قائدًا للحملة.

قالها سُليمان الحلبي لمحمود سيف الدين.

محمود بصوتٍ فَرِح: أحقًّا ما تقولهُ سُليمان؟

سُليمان: أجل.

محمود بعدما تنَّهد: أخيرًا سنتنسم أريج الحُرّية.

سُليمان: لا تفرح هكذا، فكليبر ليسَ عربيًّا، كُلّ ما في الأمرِ أنَّهُ قد رحلَ نابليون، وخلفهُ نابليون آخر.

محمود: لا، لن يكون الأمر كذلك.

سُليمان: كَيف؟

محمـــود: الآن وبعـــدَ الثـــورة التـــي قُمنـــا بهـــا؛ نتيجـــة ظُلـــم العـــدوان الفرنســـي، وســـوء مُعاملتـــهِ لنـــا، وفرضـــه الضـــرائب الباهظـــة علينـــا، وتفتيشـــهِ للـــدكاكين والبيـــوت بحثًـــا عـــن الأمـــوال، وســـعيهِ فـــي الأرضِ فســـادًا، واللَّهُ لا يُحبُّ المُفسدين.

لا بُـــدَّ وأنْ تكـــونَ لنـــا وقفـــة فيمـــا يَحـــدُثُ مـــن ظُلـــمٍ فـــاحش، وقتـــل مُمـــنهج لحُريّتنـــا، ومُحاولات إسكات صوتنا صوت الحقّ.

سُـــليمان: الحـــقُّ معـــكَ أخـــي محمـــود، ولكـــنْ لا تَـــنسَ مـــا فعلـــهُ نـــابليون وجنـــوده فينـــا، ناهيـــكَ عـــن تدنيســـهِ للأزهـــرِ الشـــريف؛ حـــينَ دخلهُ راكبًا خيلهُ هو وجنوده.

قـــد خربـــوا الأزهـــر، وقـــاموا بســـرقةِ الـــدكاكين، بالإضـــافةِ لأعمـــال الشـــغب التـــي شهدتها المحروسة.

محمـــود بصـــوتٍ حـــزين: لـــم أنـــسَ مـــا فعلـــهُ بحـــقِّ شـــيوخنا الأفاضـــل، إذ حكـــمَ علـــى بعضـــهم بالإعـــدام، كمـــا فـــرضَ علـــى البـــاقين غرامـــات ماليّـــة باهظـــة، وضـــيّقَ علينـــا ليُخيفنا من فِعلِ ذلكَ مرّةً أُخرى.

سُـــليمان: واللَّه لـــو فعلـــوا أضـــعاف مـــا فعلـــوهُ لـــن نخشـــى ســـوى اللَّه، وســـيأتي اليـــوم الـــذي نطـــرد فيـــهِ الفرنجـــة شـــرّ طـــردة، أقولهـــا لـــكَ وأنا سُليمان الحلبي.

محمـــود بعـــدما ربـــتَ علـــى كتفـــهِ بحنـــان: بإذنِ ربّ العباد يتحقق المُراد.

# الفصل الثامن

دخلَ وأغلقَ الباب خلفه.

جين، جين.

جين قادمة من الداخل: ماذا حدَث؟

دوزيه يلتقط أنفاسه: قد عادَ نابليون وهو الآن في قصره.

جين بعدما ضربت على صدرها: ماذاااا؟

دوزيه: ما سمعتِ.

جين بصوتٍ مُرتبك: أخشى على حال البلاد بعدما عَلِمَ نابليون بخيانة جوزفين.

دوزيه ساخرًا: لا تخافي عزيزتي فنحنُ في القاع، والقاع لا يُرى، فقط يُعاش!

ما الذي دفعكِ للخيانة؟

قالها نابليون بغضب.

جوزفين تتصنع البُكاء: الرغبة، احتجتُ إليكَ ولم أجدك.

نابليون: أتُبررينَ الخيانة جوزفين؟

لم تحفظي قلبي ولا عِرضي، أحببتُكِ حُبًّا فريدًا لم يُحِبُّهُ رجل لامرأة قط، لكنَّكِ فضّلتِ عليَّ صعلوك من الصعاليك، ودنّستِ فراشي المُقدّس بخيانتكِ.

جوزفين تبكي وتتوسل: سامحني، لن أُعيدها ثانيةً، أعِدُك.

نابليون بصوتٍ حاسم: أعدُكِ ألَّا يكونَ لكِ وجود بحياتي، ولكنْ ليسَ الآن، فالبلاد بحاجةٍ إليّ.

الطقس بارد، نسمات الهواء الباردة تملأ الأرجاء، الشعب المصري في حالة ترقب، فها هي اتفاقية العريش تنعقد الآن، بينَ فرنسا والدولة العُثمانيّة، بتدخل بريطاني.

نصّتْ الاتفاقيّة على انسحاب القوات الفرنسيّة من الأراضي المصريّة، على نفقة الدولة العُثمانيّة، بالإضافةِ لاعتراف الدولة العُثمانيّة بسلطة فرنسا على مصر.

رفضت بريطانيا شروط الاتفاقيّة، وأمرت القوات الفرنسيّة بتسليم أنفسهم كَأسرى حرب، لم يَقبل الجنرال كليبر بتلكَ المهانة؛ فقامَ بمهاجمة القوات العُثمانيّة وطردها من مصر إلى الشام.

وفي مارس من نفس العام، استغلَّ المصريون انشغال القوات الفرنسيّة بمهاجمة القوات العُثمانيّة، فاندلعت ثورة القاهرة الثانية، رفضًا للاحتلال الفرنسي، وما يفعلهُ من فرض ضرائب وغرامات ماليّة على الشعب، بالإضافةِ لتخريب المساجد وسرقة الدكاكين، وهدم بعض أحياء القاهرة.

اندلعت الثورة في حي بولاق، إذ قامَ الثوّار بمهاجمة المعسكرات الفرنسيّة، ثُمَّ تحصنوا في أحيائهم، لكنَّ الجنرال كليبر قد قمعَ الثورة بوحشيّة، واستخدم القوة المُفرطة، بالإضافةِ للقصفِ بالمدافع، ممّا أدى إلى سقوط عشرات الضحايا.

قــد توصــلَ الجنــرال كليبــر مــع مــراد بــك (زعــيم المماليــك)، إلــى اتفــاقٍ يقضــي بحكــم الأخيــر علــى الصــعيد، مُقابــل مبلــغ مــالي ضخم، ومساعدته للفرنسيين.

ســاءت الأحــوال الاقتصــاديّة للــبلاد، حتّــى المــواد الغذائيّــة لــم تَعــد موجــودة كمــا كانــت في السابق، ناهيكَ عن القمع والظُلم.

محمود، قد أعددتُ العُدّة.

قالها سُليمان بصوتٍ خفيض.

محمود مُتسائلًا: عُدّة ماذا؟

سُليمان: قتل كليبر اللعين.

محمود وقد اتسعتْ حدقتاه: ماذاااا؟

# الفصل التاسع

سُليمان: ما سمعت محمود.

محمود: لن أدعكَ تنال الأجر وحدك.

سُليمان مُبتسمًا: لم أَكُن لأفعل، ستكون معي أنتَ وأحمد، ويحيى.

محمود فرحًا: أحقًّا؟

سُليمان: أجل.

محمود بصوتٍ حزين: يكفي ما أحدثهُ الفرنسيّونَ ببلدنا، من فقرٍ وذلٍّ ومهانة، بل يكفي أنَّنا سنقضي بطردهم من مصر على بيوت البغاء، الناتجة عن قدومهم إلينا.

سُليمان: لعنةُ اللَّهِ عليهم أجمعين.

هلّا بقيتَ معي لبعضِ الوقت أندريه؟

قالتها أمينة بغنج.

أندريه وهو يرتدي ملابسه: وددتُ ذلكَ حبيبة القلب، لكنَّ القائدَ قد أرسلَ في طلبي.

أمينة وهي تضبط لهُ سُترته: أوحشتني قبلَ أنْ تُغادرني حبيبي.

أندريه: كُفّي غنجكِ يا امرأة؛ كي لا أتركَ الأمر وأهيمُ عشقًا فيكِ.

أمينة بضحكةٍ ركيكة: ليتكَ تفعل حبيبي.

أندريه: لا تقلقي، سأعودُ إليكِ، فأنا لا أقوى على بُعدكِ عشيقتي.

اتفقَ سُليمان مع مجموعة من أصحابه، على تنفيذ عمليّة اغتيال الجنرال كليبر، ليُريحوا العباد والبلاد من شروره.

دخـــلَ الرجـــال، الأزهـــريّين الأبطـــال إلـــى حديقة القصر، الذي يُقيم بهِ كليبر.

قـــامَ سُـــليمان بطعـــنِ كليبـــر بخنجـــره، طعنـــة نافذة في قلبهِ أدت إلى وفاتهِ في الحال.

تـــمَّ القـــبض علـــى الأبطـــال، وتقـــرر حـــرق اليـــد اليُمنـــى للبطـــل سُـــليمان الحلبـــي، ثُـــمَّ إعدامـــهِ صـــلبًا علـــى الخـــازوق، وإلـــى جانبـــهِ نبابيـــت مُعلّـــق عليهـــا رؤوس أصـــحابه الثلاث، بعدما تمَّ حرقهم حتّى تفحموا!

تـــولّى الجنـــرال جـــاك فرانســـوا مينـــو، أو عبـــد اللَّه مينـــو؛ إذ أشـــهرَ إســـلامه وتـــزوّج مـــن مصـــريّة برشـــيد؛ كَنـــوعٍ مـــن اســـتمالة عاطفـــة المصـــريين نحـــو بـــلاده، والقبـــول بمـــا يفعلـــهُ مـــن تغييـــرٍ وســـلخٍ للهويّـــة المصريّة، لصالح فرنسا.

قامت القوات البريطانيّة، والعُثمانيّة، والمماليك، بمحاصرة القاهرة والإسكندريّة، وقطع الإمدادات عن الحملة الفرنسيّة.

ممّا اضطرَ الفرنسيّين للدخول في مُفاوضات، مع القوات البريطانيّة والعُثمانيّة، وتمّ عقد اتفاقيّة الجلاء، والتي نصّت على جلاء الحملة الفرنسيّة عن مصر.

وقد تمَّ الأمر بمُغادرة القوات الفرنسيّة للإسكندريّة، في الثامن عشر من أكتوبر عام ألف وثمانمائة وواحد من الميلاد.

# الفصل العاشر

بعدَ جلاء الحملة الفرنسيّة عن مصر، تقرّب مُحمّد علي باشا من المصريين، حتّى أحبّوهُ ووثقوا به، فطلب من السلطان العُثماني أنْ يُعيّنهُ واليًا على مصر، وقد كانَ في التاسع من يوليو عام ألف وثمانمائة وخمسة.

بعدها أرادَ السيطرة الكاملة على الحكم، دونَ الرجوع للزعامة الشعبيّة، فقامَ بنفي السيّد عُمر مكرم _نقيب الأشراف، إلى دمياط، بعدما دُست لهُ الدسائس عندَ محمّد علي باشا.

مرّت الأيَّام وظهرت غاية محمّد علي، التي أخفاها حتّى تمكنَ من الحُكم، وكانَ

لــهُ مــا أراد، لكــنَّ الشــعب المصــري لــم يَكُــن ليرضــخ لــه، بــل عارضــهُ الــبعض، وانتقــدهُ الــبعض الآخــر، فمــا كــانَ منــهُ إلَّا أنْ فكــرَ كيــفَ ينــتقم مــنهم بطريقــة مروعــة، تجعــل مَن لم يُعارضهُ يخشى مُعارضته!

غُرفــة كبيــرة، رحبــة جــدًّا، مُزركشــةٌ جُــدرانها، أثاثهــا غايــة فــي الفخامــة؛ ســرير ملكــي كبيــر الحجــم، خزانــة ملابــس لا تقــلّ عنهُ فخامة.

علــى الســرير تجلــس فتــاة شــابّة، رشــيقة القــوام، عيناهــا كَالعســلِ المُصــفّى، شــعرها كَالحرير، فاحم، ومُسترسل.

ترتــدي ثوبًــا يكشــف أكثــر ممّــا يســتر، وتتزيّن بالحُلّي.

اقتربَ منها الباشا فنهضت لهُ.

ما اسمكِ يا فاتنة؟

عضّت على شفتيه؛ خجلًا، وقالت بصوتٍ رخيم: نور قادين، يا مولاي.

نظرَ إليها الباشا من أخمص قدمها حتّى رأسها، ثُمَّ قال: وأنتِ كذلك، أتعلمينَ لما أنتِ هُنا؟

نور قادين بخجل: أجل، رهنُ إشارتكَ يا مولاي.

الباشا بعدما اقتربَ منها أكثر: هل تقبيلنَ أنْ تكوني ضمن حريم الباشا ومُستولداته؟

نور قادين بصوتٍ حانٍ: وهل هُناكَ سعادة أكثر من سعادتي بحملِ بضعة مولاي الباشا بداخلي؟

تبسمَ لها الباشا، وأضاف: قد زلزلتِ كِيان الباشا يا امرأته.

نور قادين بغنجٍ: بل مولاي هو مَن زلزلني، وأوقدَ نار الشوق بقلبي.

خلعَ الباشا سُترتهُ، وأطفأ المصباح قبلَ أنْ تُكمل نور قادين حديثها.

قد تمادى الباشا في ظُلمهِ لنا، لا أُصدّق ما نَحنُ فيهِ من فقرٍ وعالة!

قالها مليجي لسعداوي.

سعداوي بعدما تنَّهد: أهذا هو مَن أحبّنا ففضل البقاء معنا؟

أهذا مَن دعمتهُ الزعامة الشعبيّة؟

مليجي بحسرةٍ طغت على صوته: كانَ يتظاهر يا صاحبي.

سعداوي بصوتٍ حزين: لكنَّنا لا نستحقّ ما يفعلهُ بنا.

مليجي مُتسائلًا: ماذا تقصد؟

سعداوي: سأتمرد عليهِ وعلى نظامه.

مليجي وقد اتسعتْ حدقتاه: لا تفعل.

سعداوي: ولِمَ؟

مليجي: لأنَّكَ إنْ فعلت قُتِلت!

سعداوي ساخرًا: لا يهم، على الأقل لن يكونَ هُناك ظالم باشا آخر.

صمت لبرهة وتابع: ظالم باشا، هذا هو لقبه الحقيقي (ظالم باشا).

مليجي بصوتٍ خائف: اصمت، كي لا تسمعنا الحيطان.

سعداوي: بل هو ظالم باشا.

عَلِمَ الباشا بما يُلّقبهُ بهِ سعداوي، عن طريق البصاصين، فأمرَ بالقبضِ عليهِ هو ومَن على شاكلته.

حارة ضيّقة بأحد أحياء المحروسة، بيتٌ صغير يدل على فقرِ قاطنيه، لكنَّ رائحة الحُبّ تفوح منه، كما تفوح رائحة الودّ والأُلفة.

سعداوي، شابّ في الثلاثين من عُمره، لم يتزوّج بعد؛ لضيق الحال، فبالبكاد يعيشونَ على قيدِ الحياة!

ورغم ما هو فيه، إلَّا أنَّ ذلكَ لم يجعلهُ ذليلًا خاضعًا لأوامر الباشا، إذ لا يُرضيهِ ما فعلهُ الباشا، وما وصلَ إليهِ حال المحروسة بعدَ أنْ صارَ واليًا عليها من قِبلِ الباب العالي.

تـــمَّ إلقـــاء القـــبض علـــى ســـعداوي، وصـــارَ حبيسًا بسجنِ القلعة.

دلـــفَ مَخـــدع نـــور قـــادين، كانـــتْ تنظـــر مـــن الشُـــرفة إلـــى الحديقـــة، وقـــفَ وراءهـــا وهمـــسَ بأُذنهـــا: نـــوري ونيـــران شـــوقي، كيفَ حالُكِ يا عزيزة القلب؟

اســـتدارت بلُطـــفٍ وقبّلتـــهُ بـــينَ عينيـــه، ثُـــمَّ قالـــت وهـــي تُـــداعِبُ شـــعره: مـــا دامَ مـــولاي بخيرٍ فأنا بخير.

ماذا فعلتِ بنا يا امرأة؟

قالها الباشا.

نـــور قـــادين بغـــنجٍ: لـــم أفعـــل إلَّا مـــا يُرضـــي مولاي ويُسعده.

الباشـــا وقـــد جلـــسَ علـــى الأريكـــة، يَحمـــلُ تلالًا من الهموم: آهٍ على مولاكِ ألف آه.

نور قادين: ماذا حَدَثَ يا مولاي؟

الباشا: قد عصى بعض الرعيّة أوامري.

نور قادين: كيفَ تجرؤا؟

الباشـــا: قـــد تجـــرؤا حتّـــى أنَّهـــم يُلّقبـــونني بظالم باشا!

نور قادين: خابوا وخسروا.

ثُـــمَّ جلســـت بجـــوارهِ والتزمـــت الصـــمت فتـــرة، وبعـــدها اتســـعتْ حـــدقتاها، ونظـــرت للباشـــا فـــي عُجـــبٍ وقالـــت: بمـــاذا ســـيُكافئني مـــولاي إنْ أخبرتـــهُ بالحـــلّ الجـــذري لمَـــن يُعارضه؟

**الباشـــا بحمـــاس: بمـــا تُريـــدهُ نـــار القلـــب ونوره.**

**نـــور قـــادين: قـــد تمـــادى أولئـــك الرعـــاع يـــا مـــولاي، لـــذا لا بُـــدَّ وأنْ ينـــالوا جـــزاء تماديهم.**

**الباشا: الحقُّ معكِ ولكنْ كَيف؟**

**نـــور قـــادين: ســـنقوم بكســـرِ نفوســـهم، وسحق كرامتهم، ودهس رجولتهم.**

**ســـكتت بُرهـــة وأضـــافت: سنضـــربهم فـــي مقتـــل، لـــذا ســـيكون الضـــرب مُوجّهًـــا لرجولتهم.**

**الباشا: كَيف؟**

**نـــور قـــادين وقـــد اقتربـــت منـــهُ أكثـــر، وضـــعت فمها على أُذنهِ وأخذت توسوس له.**

اتسعتْ حدقتاهُ من هَولِ ما سمع، ثُمَّ قال: ماذا تقولينَ يا امرأة؟

جنابنا لا يقبل هذا الفِعل أبدًا.

نور قادين بدلال وبصوتٍ حانٍ: جناب مولاي لا بُدَّ وأنْ يظلّ محفوظًا بأيّة وسيلة كانتْ.

فكّرَ لفترة ثُمَّ قال: الحقُّ معكِ يا امرأة، جنابنا لا بُدَّ وأنْ يظلّ محفوظًا، وأولئك الرعاع لا بُدَّ وأنْ ينالوا جزاء تجرأهم على جناب حضرتنا.

انصاعَ مُحمّد علي باشا لوسوستها الشَّيطانيّة، ليسطرَ في صفحتهِ الخاصّة بكتابِ التاريخ، وصمة عار على جبينهِ تظلّ باقية ما بقيت الحياة.

# الفصل الحادي عشر

أمـــرَ الباشـــا مســـؤول الســـجن بتنفيـــذ خطّـــة جديـــدة، تتضـــمن الانتقـــام مـــن المُعارضـــين، عـــن طريـــقِ الاعتـــداء علـــيهم جنســـيًّا بـــداخل السجون.

وأصـــدرَ فرمانـــهُ لكافـــة ســـجون المحروســـة؛ لينتقم منهم جميعًا في وقتٍ واحد.

زنزانـــة صـــغيرة مُظلمـــة، بالكـــاد يســـتطيع الجلوس بها، ضيّقة ويكأنَّها القبر!

ســـمعَ قـــرع نعـــال قـــادم إليـــهِ مـــن الخـــارج، لحظـــات وتبـــيّنَ لـــهُ مـــا كـــانَ يجهلـــه؛ إذ قـــامَ مـــرزوق (مســـؤول الســـجن) بفـــتح بـــاب الزنزانـــة، وأمـــرَ الحُـــرّاس بتقييـــدهِ ثُـــمَّ انصـــرفوا وجـــاء أحـــد الرجـــال، ضـــخام

البنيــة، غمــزَ لــهُ مــرزوق وقــال: أتمنّــى لــكَ ليلة مُمتعة جاهين.

انصـــــرفَ مـــــرزوق، ودلـــــفَ جـــــاهين الزنزانة، وأغلقها خلفه.

نظــرَ إلــى ســعداوي نظــرات حيوانيّــة، تحمــلُ الحقــد والــبُغض، ثُــمَّ اقتــربَ منــهُ وقــالَ بهمــسٍ: قــد تجــرأتَ علــى الــذات الباشــويّة، والآن ســتنال عِقابــك، عِقــاب لــن تَنســاهُ مــا حييــت، بــل لــن تعــودَ بعــد قليــل كمــا أنــتَ الآن.

صــرخَ ســعداوي صــرخاتٍ رافضــة لتــدنيس شــرفه، صــرخات مكلــوم مغلــوب علــى أمره؛ علَّ أحدهم يُنقذه.

لكــنْ لا أحــدَ يُجيــب، ســكون الليــل يُــوحي بــالفزع، الظــلام دامــس عــدا البــؤرة التــي وُضِعَ بها المصباح.

تأســفَ ســعداوي واعتــذر، ووعــدهُ بــأنْ لا يعــودَ لتلــكَ الجــرأة مــرّةً أُخــرى، بكــى وبكــى وبكــى، لكــنَّ جــاهين ضــخم البنيــة، عــديم الرحمــة، جاحــد القلــب وقاســيه لــم يــرأف بــهِ، بــل جــرّدهُ مــن ملابســهِ وشــرعَ فــي نــزعِ كرامتهِ ودهس رجولته.

لــم تَكُــن صــرخات ســعداوي هــي الوحيــدة فــي تلــكَ الفتــرة؛ إذ كانــتْ صــرخات الرجــال تــدوي فــي أرجــاء المحروســة، بــل وتُزلــزل كِيانها.

صــرخات ســمعها كُــلّ مــا خلــقَ اللّه عــدا مَــن هُم خارج السجون!

قـــد نجـــحَ الباشـــا فـــي القضـــاء علـــى المُعارضـــة وإذلال الرجـــال، حتّـــى خلـــت المحروسة بأكملها من قولة (لا).

# الفصل الثاني عشر

هـــا قـــد حانـــت لحظـــة المُكافـــأة يـــا نـــوري ونـاري.

قالهـــا الباشـــا بعـــدما دخـــل المخـــدع، وهـــو يحمل صندوقًا أنيقًا.

اقتربـــت منـــهُ نـــور قـــادين، وبلمعـــةٍ ســـاحرة قـــد ســـكنت عيناهـــا، نظـــرت بعينيـــهِ وقالـــت بـــدلال: لا حاجـــةَ لـــي بهـــذهِ المُكافـــأة؛ فقـــد أخـــذتُ مُكافـــأتي حـــينَ أصـــبحتُ مُســـتولدة لجنابكم مولاي.

يكفي ما تفعلينهُ بي يا امرأة.

قالها الباشا بصوتٍ رخيم.

نـــور قـــادين بهمـــسٍ حـــانٍ: ومـــاذا فعلـــت يـــا نبض قلبي؟

الباشـــا بهمـــسٍ رخـــيم: قـــد أذبـــتِ الباشـــا عِشقًا بكِ يا امرأة!

نور قادين بغنجٍ: بل هو مَن أذابني.

جلـــسَ الباشـــا علـــى الأريكـــة، وجلســـت هـــي عندَ قدميه.

لِمَ تجلسينَ هكذا؟

قالها الباشا.

نور قادين: أجلسُ حيثُ يطمئنّ قلبي.

الباشا: أويطمئن قلبكِ عندَ قدمي؟

نـــور قـــادين بـــدلال: أجـــل، فأنـــا لا أُحِـــبُّ أنْ يُساويكَ أحد ولو في جِلسة.

الباشـــا مُبتســـمًا: هيّـــا انهضـــي وتعـــالي هُنـــا بجواري.

نهضت نور قادين، وجلست حيثُ أمرها.

فـتحَ الصـندوق وأخـرج منـهُ الهديّـة؛ قـلادة ثمينـة، صُـنعت مـن الـذهبِ الخـالص، وبعض الأحجار الكريمة النادرة.

اتسـعتْ عيناهـا فـي ذهـول؛ إذ لـم تُصـدّق ما تراه.

اقتربـت منـهُ أكثـر، وبهمـسٍ قالـت: دُمـتَ لي وللمحروسةِ كُلّها مولاي.

مسـحَ الباشـا علـى شـعرها، وألبسـها القـلادة، ثُـمَّ قـال: قـد نجحـت خطّتـكِ الخاصّـة بالمُعارضـة، لكـنَّ أمـر المماليـك لا زالَ يُؤرِقُ ليلي.

نور قادين بحماس: لا تعتل همًّا مولاي.

الباشا بصوتٍ مُرهق: أعندكِ حلّ؟

نــور قــادين مُبتســمة: وإنْ لــم يَكُــن عنــدي، أوجدهُ لكَ مولاي.

ربــتَ الباشــا علــى يــدها بحنــانٍ وتــابع: دامَ لي عقلكِ المُستعر بأفكارٍ جهنميّة.

نــور قــادين ضــاحكة: أعــداء جنــابكم أهــلًا لتنفيذ أفكاري.

مــرّت الأيَّــام وجــاءَ موعــد تنفيــذ الخطّــة الجديدة.

أجــواء الربيــع تمــلأ الأرجــاء، الــروائح الشــهيّة تخــرج مــن أبــواب القلعــة، مُخترقــةً الآناف.

قــد أتــى الضــيوف للتــوّ بعــدما أدّوا صــلاة الجُمعــة، اســتقبلهم الباشــا ببشاشــة، ورّحــبَ بهــم أيُّمــا ترحــاب، ثُــمَّ انتظــرَ حتّــى حضرَ الجميع، وبعدها أمرَ بتقديم الغداء.

وليمـــة هائلـــة، ومائـــدة عظيمـــة، حَـــوتْ ألوانًـــا مـــن الأطعمـــة والمشـــروبات المُتنوّعـــة، مـــا بـــينَ لحـــومٍ وطيـــورٍ وســـلطات، بالإضـــافةِ للمشـــويّات وشـــوربة الكونســـوميه (نـــوع مـــن الشـــوربة الفرنســـيّة المركـــزّة والمصـــفّاة)، والتـــي يُفضّـــلُها الباشا شخصيًّا.

كـــذلكَ لـــم يَـــنسَ الطُهـــاة الســـمك الفرنســـاوي الملـــوكي، الـــذي يُفضّـــلهُ الباشـــا علـــى كثيـــرٍ من وجبات الأسماك الأُخرى.

تنـــاولوا طعـــامهم وأعقبـــوهُ بالفاكهـــة الطازجـــة، وكـــذا المشـــروبات البـــاردة المُحلّاة بعسلِ النحل.

سيف الدين، أينَ هو أمين بك الألفي؟

قالها بهمسٍ.

سيف الدين بذات الهمس: أظنّهُ في مؤخرة الصفوف مُراد بك.

مُراد بك: حسنًا، خشيتُ عليهِ من غضبِ الباشا، فكما تعلم مَن لم يُلّبي لهُ دعوة، يكون قد حكمَ على نفسهِ بالعذاب.

سيف الدين: أعلمُ ذلكَ جيّدًا.

مرَّ الوقت وتمَّ الأمر، وحانَ موعد المُغادرة، أشارَ الباشا إلى جنودهِ الذّينَ يملأونَ المكان، فأغلقوا الأبواب وشرعوا في إطلاق النيران على الضيوف.

كانَ أمين بك الألفي يقف خارج الأبواب في تلكَ اللحظة، وحينَ رأى ما رأى، أسرعَ إلى حصانهِ فركبهُ وانطلقَ بهِ نحوَ أسوار القلعة.

قَفــزَ بــهِ مــن فــوقِ الأســوار، غيــر مُبــالٍ بالنتــائج، فكــلّ مــا يشــغل بالــه هــو أنْ ينجــو من الموت.

نجــا مــن المــوتِ بأعجوبــة، لكــنَّ حصــانهُ الشهم قد فارقَ الحياة.

انهالــت عليــهِ ضــربات الجنــود وطعنــاتهم بالســيوف، حتّــى أصــابوهُ بجــروحٍ بالغــة بعُنقه، ثُمَّ تركوهُ بعدما ظنّوا بموته.

أخــذهُ بعــض البــدو، قــاموا بمُعالجتــه، وأخفــوا خبــرهُ حتّــى شُــفيَ تمامًــا، ورُدت إليهِ عافيته فسافرَ إلى الشام.

لــم تمــرّ تلــكَ الحادثــة اللعينــة مــرور الكِــرام علــى الشــعبِ حينهــا؛ فقــد أرهــبَ المصــريين، وضــاعف الخــوف فــي

نفوســـــهم، وقتـــــلَ بهـــــم النخـــــوة وروح النضال.

خـــرجَ مـــن الســـجنِ بعـــدما ســـلبوه كرامتـــه، ودنســـوا شـــرفه، قاصـــدينَ بـــذلكَ إســـكات صوته عن المُعارضة وللأبد.

ولكـــنْ، هـــل يُصـــبح الحُـــرّ ديّوثًـــا علـــى وطنـــهِ مهما فعلوا به؟!

# الفصل الثالث عشر

طـــرقَ البـــاب، رأى أبـــاهُ فســـقط مغشـــيًّا عليـــه، حملـــهُ الأبّ بمُعاونـــة جـــاره وصـــديقه (عبـــد الـــرحمٰن)، الـــذي كـــانَ يُشـــاركهُ شـــراب الشاي في تلكَ الأثناء.

مالكَ يا ولدي؟

قالها الأبّ لابنهِ بعدما عادَ إليهِ وعيه.

ســـعداوي ينظـــر لســـقفِ الغُرفـــة والـــدمعُ يجري بمُقلتيهِ دونَ أنْ يتحدّث.

حـــاولَ عبـــد الـــرحمٰن أنْ يتحـــدّث معـــهُ، لكـــنَّ ســـعيد قـــد منعـــهُ بقولـــه: دعـــهُ وشـــأنه يـــا عبـــد الـــرحمٰن، هـــو يحتـــاج لـــبعض الراحـــة، هيّـــا لنُكمـــل مـــا بـــدأناهُ مـــن أحاديـــث، ونصـــنع لـــهُ وجبته المُفضّلة.

خرجا وما أنْ فعلا حتّى انفجرَ سعداوي باكيًا، كاتمًا صوتهُ بوسادته؛ كي لا يُسمَع لجُرحهِ صوت.

بكى قهرًا، بكى ألمًا، بكى حُزنًا، بكى ظُلمًا.

بكى وما حِيلةُ الضُعفاء إلَّا البُكاء!

نهضَ وجفف دمعه، وتعاهد على ألَّا يسكت مهما حدث؛ فما الذي يخشى حدوثهُ بعدما حَدَث؟

مرّت الأيَّام واستعادَ سعداوي بعضًا من وزنهِ الذي فقدهُ بالمحبس، لكنَّهُ أبدًا لن يستردّ عافيته النفسيّة؛ فبعض الأشياء تذهب ولا تعود، وبعض الأشخاص لا يعودونَ كما كانوا قبلَ حَدَثٍ بعينه.

تقـــرّبَ إلـــى اللهِ كمـــا كـــانَ قبـــلَ دخولـــهِ السـجن، وقطـــعَ علاقتـــهُ بأصـــحابه؛ خشـــية أنْ يُصـــيبهم الأذى بســـببهِ، أحـــبّهم فســـكنَ الخـــوف قلبـــه، هـــو لا يُريـــدُ أنْ يتكـــرر مـــا فُعـــلَ بـــهِ مـــع أحـــد، خصوصًـــا إنْ كـــانوا أصحابه.

قطـــعَ علاقتـــهُ بأبيـــهِ واســـتقلَّ بمســـكنٍ بعيـــدٍ عنـــهُ؛ كـــي لا يتـــأذى بســـببهِ، فمـــا عقـــدَ عليـــهِ العـــزم، لهـــو الأجـــل المُحـــتم، لكنَّهـــا النخـــوة، إنْ هـــي ســـكنت روحًـــا أوصـــلتها لطريـــقِ الشهادة ومنزلة الشُهداء.

ظـــلّ ســـعداوي يحـــثّ النَّـــاس علـــى عـــدمِ الخضـــوع، والمُطالبـــة بحقـــوقهم التـــي ســـلبهم إيَّاهـــا الباشـــا، لكـــنَّهم لـــم يســـتجيبوا له.

طـــافَ أحيـــاء وحـــواري المحروســـة؛ علَّـــهُ يجـــد ضـــالته، لكـــنَّ الخـــوفَ كـــانَ هـــو المُسيطر على قرارات النَّاس.

لـــم يتبعـــهُ أو يُنصـــت لـــهُ أحـــد، فمـــا أنْ يُطـــالبهم بالتصـــدّي لظـــالم باشـــا _كمـــا يُطلِـــق عليـــه، حتّـــى يهرولـــوا مـــن أمامـــهُ وكـــأنَّ القيامة ستقوم!

لـــم يَكُـــن يعلـــم أنَّ الشـــعب قـــد صـــارَ بصاصًـــا علـــى بعضـــهِ الـــبعض، قـــد أدّى الخـــوف إلـــى جعلهم جواسيسًا على بعضهم.

تـــمَّ إلقـــاء القـــبض علـــى ســـعداوي، لكنَّـــهُ لـــم يـــدخل الســـجن، بـــل قابـــلَ الباشـــا، والـــذي أمـــرَ بذلك.

صعلوك خسيس.

قالها محمد لاظ باشا.

سعداوي ينظر إليهِ نظرة ازدراء دونَ أنْ يُجيبه.

محمد لاظ باشا: ألم تعتبر بما حَدَثَ لكَ يا صعلوك؟

سعداوي بلا مُبالاة: لا، لم أعتبر يا مُهندس المذبحة.

لطمهُ محمد لاظ باشا فأدمى وجهه، ثُمَّ عقب: أراكَ تشتاقُ إلى جاهين.

هُنا صرخَ بهِ سعداوي: قبّحَ اللَّهُ وجهكَ يا لعين، ونظرَ إلى الباشا وتابع: وأنتَ كذلكَ قبّحكَ اللَّهُ وخسفَ بكَ يا سارقًا خيراتنا.

اقتربَ منهُ الباشا وقال: أنتَ تتجرأ للمرّة الثانية على حضرة جنابنا، ولكنْ لن أُحاسبك، بل سأُطلق سراحك شريطةَ أنْ

تُخبرُنـــي عــن أصــحابك، الــذّينَ تركــوكَ حــينَ ألقى الجنود القبض عليك.

ســـــعداوي: لـــــن أفعـــــل، ســـــأجعلكَ تتفاجـــــأ بثورتهم العارمة ضدكَ يومًا ما.

لطمـــهُ الباشـــا وقـــالَ بغصـــب: مَـــن أنـــتَ حتّـــى تتجرأ عليَّ هكذا؟

أجابـــــهُ ســـــعداوي بفخـــــرٍ، وبلهجـــــةِ أجـــــداده التي يُفضّلُها:

القوت ما هوّاش ملكك

ولا أنت مالكنا

خدك غروك يا لئيم

فاكر هتهلكنا

الأرض لا هي أرضك

دي دارنا وبيوتنا

العرض مش عرضك

ولو على موتنا

ولم تقدر حاشيتك

ف يوم تسكتنا

القوت ما هوّاش ملكك

ولا أنت مالكنا.

وضّـــحَ لـــهُ أحـــد الجنـــود مقصـــد ســـعداوي، فمـــا كـــانَ منـــهُ إلَّا أنْ أمـــرَ بإعدامـــهِ رميًـــا بالرصاص.

# الفصل الرابع عشر

احتدَّ الأمر بينَ الباشا وزوجه أمينة هانم، خصوصًا بعدَ مذبحة القلعة؛ حيثُ أُصيبت بصدمةٍ حادّة، لم تَكُن تتوقع يومًا أنْ يكونَ زوجها بتلكَ البشاعة.

كانتْ هي أقرب أزواجه إلى قلبه، صُدمت بفِعلهِ فحزنت وكُسرَ قلبها، عارضتهُ وأخبرتهُ بنظرتها التي تغيّرت تجاهه.

حاولَ أنْ يسترضيها بطُرقٍ كثيرة، لكنَّ مُحاولاتهِ باءت بالفشل، وانتهى الأمر بينهما بأنْ لا يَمسّها، ولا يَقرب لها فِراشًا ما بقيَ من عُمرها.

حَـــزِنَ الباشـــا علـــى تـــدهور عَلاقتـــهِ بهـــا، لكنَّـــهُ لـــم يَضـــغط عليهـــا، وفعـــلَ لهـــا مـــا أرادتْ.

بيـــتٌ كبيـــر مصـــنوع مـــن اللـــبِن، يقـــع علـــى أطـــراف القـــاهرة، بـــهِ خمســـة أفـــراد، والقليـــل من الماشية، وبعض الطير.

(عيســـوي) ربّ البيـــت وعائلـــه الأوحـــد، ســـلبهُ الفقـــر شـــبابه وقوّتـــه وعافيتـــه، وُلِـــدَ لأبٍ فقيـــر، وقضـــى شـــبابهُ فـــي الفقـــر، مُحـــاولًا إحـــداث تغييـــر، لكـــنَّ العُمـــر قـــد جـــرى بهِ حائلًا بينهُ وبينَ تحقيق مُراده.

كـــانَ يحلـــم لأبنائـــهِ بأيَّـــامٍ ســـعيدة، علـــى عكـــسِ أيَّـــام الشـــقاء التـــي عاشـــها، ســـعى وكـــدَّ واجتهـــد، لـــم ييـــأس حتّـــى أصـــدرَ الباشـــا

قـــانون الاحتكـــار فقضـــى علـــى حُلمـــهِ وآماله.

صـــرنا عبيـــدًا عنـــدَ الباشـــا، بعـــدما كُنّـــا أصحاب أرض.

قالها عيسوي لزوجهِ.

ربتـــت علـــى كتفـــهِ بحنـــانٍ وتابعـــت: دعـــكَ مـــن هـــذا الكـــلام يـــا أبـــا غالـــب؛ إذ للحيطـــانِ آذان.

نظـــرَ إليهـــا عيســـوي، وقـــالَ ســـاخرًا: ليتهـــا تُخبرهُ بما نُكنّهُ لهُ من كُرهٍ يا فكيهة.

وضـــعت فكيهـــة يـــدها علـــى فِيـــهِ وتابعـــت: تذكّر ما حَدَثَ لزين الشباب (سعداوي).

تساقطت عَبرات عيسوي، وتابعَ بصوتٍ حزين: رَحِمَهُ اللَّه، راحَ صريعًا لكلمةِ حقٍّ قالها في وجهِ سُلطانٍ جائر.

قامتْ بترتيبِ المخدع، وتعطيرهِ بأجودِ العطور الفرنسيّة، ثُمَّ وضعتْ البخور الذي يُفضّلهُ الباشا، وجلست أمام المرآة تتزيّن وتتجمل لهُ.

طرقَ الباب ودلف، رأتهُ فأسرعتْ إليهِ لتُقبّلَ يُمناه، مسحَ على شعرها بحنانٍ وجلسَ على الأريكة، شارد الذهن مهموم.

لمست يدهُ بحنانٍ وتابعت: ما بال مولاي مهمومًا؟

نظـــرَ لهـــا الباشـــا نظـــرة امتنـــان، وقـــالَ بصـــوتٍ هـــادئ: قـــد هجرتنـــي أمينـــة هـــانم وهي تعلم مدى حُبّي لها.

نـــور قـــادين بصـــوتٍ رخـــيم: لا تحـــزن مـــولاي، ســـيأخذ الغضـــب وقتـــهُ وتعـــودانِ لبعضكما كما كُنتما وأكثر.

تبســـمَ لهـــا الباشـــا وأضـــاف: آهٍ منـــكِ ومـــن تأثيركِ على جنابنا نور قلبي!

نـــور قـــادين بعـــدما نهضـــت: لـــيسَ كَتأثيرهـــا هـــي، وســـارت نحـــو المائـــدة، فحملـــت صـــحنًا مُزركشًـــا يحـــوي بداخلـــهِ نوعًـــا مـــن الحلويّات.

وقفـــت أمامـــهُ وببســـمةٍ ســـاحرة قالـــت بـــدلالٍ: تفضّل يا باشا، البسبوسة التي تُحِبُّها.

ضـــحكَ الباشـــا وقـــال: بـــل أُحِبُّـــكِ أنـــتِ، وتنـــاول قطعـــة، تناولهـــا وتـــابع: مـــا هـــذهِ اللذة التي أشعر بها؟!

ضـــحكت نـــور قـــادين بغـــنجٍ وتابعـــت: بالهنـــاءِ والشفاءِ على قلب قلبي.

مـــرَّ الزمـــان، واعتـــادَ الشـــعب الرضـــوخ، مُحقّقـــينَ بـــذلكَ رغبـــة محمّـــد علـــي باشـــا فـــي الانفـــراد بحكـــم مصـــر، وإحكـــام الســـيطرة عليهم.

جلـــسَ أمـــام بيتـــهِ بعـــدما أصـــدرَ الباشـــا فرمانًـــا بـــإغلاق المقـــاهي؛ لأســـبابٍ سياسيّة، استبدلَ المصطبة بالمقهى.

ينفث التبغ، ثُمَّ يقول ساخرًا:

وعندك واحد دخان

فيتامين غني بالقطران

مبيشربهاش غير جدعان؟

دي وسواس

لم سبارس

وأنت يا عيني مش حاسس

جيبك مخروم يا غلبان

صعبان عليا يا إنسان

خارب بيتك

قوتك

موتك

على اِيدك وأنت الخسران

عندك واحد دخان

فاكرها شياكة

بكُلّ تناكة

أنفاسك محسوبة عليك

ده أنت بتنهج

أما بتطلع سلمتين اللَّه يهديك

اللَّه يهديك.

# الفصل الخامس عشر

أغوتــهُ حتّــى رضــخَ لهــا، أعطتــهُ مــا يُريــد مُقابــل أنْ يُحقّــقَ لهــا مُناهــا فــي الــتخلُّصِ من أمينة هانم؛ كي تنفرد بالباشا.

أصــابهُ الــذهول مــن هَــولِ مــا ســمعَ منهــا، لِعلمــهِ بعاقبــة ذلــكَ الفِعــل، وهــو المــوت لا مَحالة.

رفــضَ طلبهــا، راجيًــا أنْ تــأمرهُ بــأيّ شــيءٍ غير قتل سيّدة القصر أمينة هانم.

لا أستطيع صدّقيني.

قالها بخوفٍ.

اقتربــت منــهُ نــور قــادين، أخــذتْ تُــداعِبُ خصــلاته، وقالــت بصــوتٍ حــانٍ: أشــبعتَ منّي عزيزي عزيز؟

عزيــز بصــوتٍ رخــيم: لا ولــن يحــدُث، لكــنَّ الذي تطلبينهُ هو المُستحيل بعينه.

نــور قــادين: أهكــذا يكــون ردّ فعلــكَ يــا رجلي العزيز؟

عزيز: لم أقصد، ولكنْ....

نــور قــادين مُقاطعــةً بغــنجٍ: يكفــي، شُــكرًا لــكَ يــا عزيــزي، واســتلقت علــى ســريرها مُتظاهرة بالبُكاء.

اقتــربَ منهــا عزيــز، نظــرَ إليهــا وكأنَّــهُ يراها للمرّةِ الأولى!

ماذا تفعلينَ بي يا امرأة؟

أسرقتِ الغواية من إبليس؟

أكُلّ هذا الغنج بامرأةٍ واحدة؟؟!

أغرتـــهُ بابتســـامتها المُثيـــرة، فتقـــدّمَ منهـــا وتـــابع: والـــذي خلقـــكِ لأفعلـــنَّ لـــكِ مـــا تُريـــدين، ولكـــنْ دعينـــي أتـــنعم بـــالقُربِ منـــكِ الآن.

حـــاولَ عزيـــز قتـــل أمينـــة هـــانم عـــن طريـــقِ وضـــع السُـــمّ فـــي الشـــراب الـــذي تُفضّـــله، بعدما أغرى وصيفتها (نازك) بالزواج.

تقـــدّمت منهـــا، تحمـــل صـــينية تقـــديم، وضـــعت عليهـــا الشـــراب المُفضّـــل لـــدى أمينة هانم.

تفضّلي مولاتي.

قالـــت بصـــوتٍ خـــائف، وهـــي تمـــدّ لهـــا يـــدها المُرتعشة بالكوب.

تبسمتْ لها أمينة هانم، وقالت: شُكرًا لكِ يا فتاتي، وأخذت منها الشراب، ثُمَّ أمرتها بالجلوس.

أمينة هانم: أتعلمينَ يا نازك لِمَ فضّلتكِ على غيركِ من الوصيفات؟

نازك بتوتر: لكرمكِ مولاتي.

أمينة هانم: ليسَ هذا فحسب؛ فأنا كريمةٌ مع سائر وصيفاتي.

نازك بقلق: إذًا لماذا مولاتي؟

أمينة هانم مُبتسمة: لأمانتكِ نازك، أنتِ الوحيدة التي لا أشك بها البتة، حتّى وإنْ كانَ هذا الشراب ما هو إلَّا سُمٌّ زعاف!

اتسعتْ عيناها في دهشةٍ، وتصببت عرقًا دونَ أنْ تردّ.

أمسكت أمينة هانم بالكوب، وتابعت: حتّى وإنْ كان سأتناولهُ.

نظرت إليها نازك والدمع يتساقط من عينيها، ثُمَّ ألقت الكوب بعيدًا عن يدها، وقالت بصوتٍ يقطعهُ البُكاء: سامحيني مولاتي، قد أغواني شَّيطان الإنس، ووعدني بالهربِ من القصر، ومن ثَمَّ الزواج إنْ أنا وضعتُ لكِ ما أعطانيهِ من سُمٍّ زعاف.

أمينة هانم بثقة: أتظُنّينَني لا أعلمُ بما يدور في قصري نازك؟

أمنكِ أنتِ تأتيني الخيانة؟

أنتِ يا ابنة قلبي!!

حسنًا، أنتِ مَن جنيتِ على نفسكِ.

نـــازك تُقبّـــل قـــدمها، وتتوســـل إليهـــا ألَّا تقتلها.

أمينة هانم: مَن هو؟

نازك باكية: وتُبقيني على قيدِ الحياة؟

أمينـــة هـــانم بغضـــب: مَـــن هـــو يـــا لعينـــة، ولطمت وجهها فأدمته؟

نازك بأنفٍ نازف: عزيز أغا.

أمينـــة هـــانم وقـــد اتســـعتْ عيناهـــا: عزيـــز أغا!

أهو ابن سُليمان باشا؟

نازك: هو يا مولاتي.

هـــزّت رأســـها، وأمـــرت باحتجـــاز نـــازك حتّـــى تتأكد من اتهامها لعزيز أغا.

عَلِـــمَ الباشـــا بـــالمؤامرة، فـــأمر الجنـــود بإلقـــاء القـــبض علـــى عزيـــز أغـــا ابـــن صـــديقه سُليمان باشا.

تـــمَّ إلقـــاء القـــبض عليـــهِ وأصـــبحَ رهـــن الاحتجاز.

زنزانـــة رحبـــة، يُنيرهـــا مصـــباح زيتـــي، جلـــسَ علـــى البســـاط، يبكـــي نادمًـــا علـــى مـــا أقـــدمَ عليـــه؛ إذ أمينـــة هـــانم هـــي بمثابـــة أُمّـــه (فيراي).

لـــم يُصـــدّق مـــا حَـــدَث، بـــل كيـــفَ رضـــخ لنـــور قادين، وأطاعَ أمرها؟

أينَ كانَ عقله؟

أينَ كانتْ نخوته؟

أعبدٌ هو للشّهوات؟

لكنَّــهُ لــم يرضــخ لامــرأةٍ قــط، مــا الــذي فعلتــهُ بهِ نور قادين؟!

ماذا إنْ تمَّ إعدامه؟

كيفَ سيُقابلُ ربّه؟

بــل بــأيّ وجــهٍ ســيُقابلهُ وقــد خــانَ أمانتــهُ بجسدهِ حينَ وقعَ في الحرام؟؟

الجســـد تلـــكَ الوديعـــة الربّانيّـــة، التـــي أودعهـــا اللَّهُ العبـــد وائتمنـــهُ عليهـــا، إلـــى أنْ يقضي أجله.

بكـــى عزيـــز بُكـــاء النـــادم، ثُـــمَّ طلـــبَ مـــن الحُـــرّاس بعـــض المـــاء؛ ليغتســـل قبـــلَ أنْ يُصلّي.

كـــانَ لـــهُ مـــا أراد، فاغتســـلَ بمـــاءِ النـــدم، واســـتترَ بثـــوبِ التوبـــة، وصـــلّى مـــا شـــاءَ لـــهُ أنْ يُصلّي.

طلـــبَ مُقابلـــة الباشـــا، جـــاءهُ الـــردّ بعـــدَ عِـــدّة أيَّـــام بالمُوافقـــة، قابـــلَ الباشـــا وقـــصَّ عليـــهِ مـــا كـــانَ مـــن أمـــرِ نـــور قـــادين، لكـــنَّ الباشـــا لـــم يُصدّقهُ ولطمهُ، وأمرَ بإعدامه.

أســـرعَ إلـــى مخـــدعها، فـــتحَ البـــاب، بحـــثَ عنهـــا فلـــم يَجـــدْها، أخـــذَ يُناديهـــا نـــور قـــادين، لكـــنْ لا أحـــدَ يُجيـــب، حتّـــى جاءتـــهُ إحـــدى الوصـــيفات تُخبـــرهُ بهروبهـــا قبـــلَ ســـبع ساعات.

صـــرخَ الباشـــا بغضـــب: لعنـــةُ اللَّهِ عليـــكِ أيّتُها اللعينة!

قــد تقــرر إعدامــه بعــد ســاعتينِ مــن الآن، توضــأ وصــلّى ركعتــينِ للّه، وجلــسَ يُنــاجي ربّه:

بدايتي ونـهايتي

مِلكٌ لجاهك

يا إلـهي وخالقي

يا ربّ غُفرانكَ غايتي

أدعوكَ رَبّي بدمعِ عيني ومُهجتي

ربّ البريّة والحياة

إليكَ أشكو ذلّتي

وأبوءُ بالذنبِ الكبيرِ وتوبتي

أقِفُ ببابك

أنتَ الكريم ومَن أنا؟

عبدٌ فقيرٌ آلهته شّهوات الدُنا

أنتَ الغفور

أنتَ الشكور

يوم أنْ عصيتك

أمهلتني رفقًا

ورحمتني عتقًا

قد زاد بي شوقًا

ربًّا رؤفًا بالعبادِ وباصري

أنتَ وحدكَ ساتري

كُلّ الحيوات ستبلى وتهتري

يا نفس توبي واقنعي

سمعًا وطاعة فاسمعي

الآن آن فأخشعي

قبلَ الرحيل

سفرٌ طويل

فتزودي بزاد ربّكِ واقنعي

وعن الذنوب والمعاصي ترّفعي

رضاكَ يا ربّ قصدي ومنيتي.

# الفصل السادس عشر

بيتٌ فسيح، مليءٌ بالخيراتِ والأثاث الفاخر، نِعمَ اللهِ ظاهرة على أهله، كيفَ لا وهو بيت أحد كِبار تُجار الرقيق، وشريف من أشراف المركز، إنَّهُ بيت المعلّم محمد.

ارتجَّ البيت فرحًا بقدومِ المولود الجديد، ليكونَ عام ألف وثمانمائة وخمسون، عام فرح وسعادة للبيتِ ومَن فيه.

أسماهُ أباهُ إبراهيم؛ تيّمُنًا بأبي الأنبياء _عَلَيْهِ السّلام، عقَّ عنهُ بكبشينِ أملحين.

قد رُزقَ محمد حُبّ ابنه إبراهيم، فقرّبهُ إليهِ.

لمّا بلغَ إبراهيم عامه الثامن عشر، أشركهُ أباهُ في تجارتهِ الكبيرة، وأوكلَ إليهِ أحد الأعمال؛ فكانتْ رحلة إلى أقاصي السودان، عام ألف وثمانمائة وثمانية وستون.

اشتهر إبراهيم بأخلاقهِ الحميدة، وذاع صيت تقواه وورعه الأرجاء.

كانَ أسمر البشرة، دقيق الملامح، متوسط القامة.

سافرَ إلى السودان، هبطَ بإحدى القُرى وأقامَ بها مع قافلته.

قد حضرَ الضيف يا سيّدي.

قالها شهاب آخذًا وضع الإنحناء.

هــزَّ رأســهُ وأضــاف: حســنًا، أرســل إليــهِ قمر القسوم.

شهاب: أمر سيّدي، قالها وانصرف.

صَــلَّى فرضــهُ وجلــسَ يــذكر ربّــه، جاءتــهُ تمشــي علــى اســتحياء، وقفــت أمــامَ خيمتــهِ ونــادتْ بصــوتٍ رخــيم: السّــلامُ علــى الضيفِ ورحمة اللَّه.

ردَّ عليها السّلام دونَ أنْ ينظر إليها.

اقتربــت مــن بــابِ الخيمــة، حتّــى ســدّتهُ بقوامها الممشوق.

ماذا تُريدينَ يا هذهِ؟

قالها إبراهيم بصوتٍ خَشن.

مالت عليهِ وقالت: أُريدُ بركتكَ يا سيّدي.

إبـــراهيم مُعرضًـــا عنهـــا: اذهبـــي فـــلا بركـــةَ لي ولا شيء.

أخـــذت تنظـــر إليـــهِ حتّـــى اســـتدارَ ونظـــرَ إليهـــا، شـــابّة مليحـــة، غنجـــاء، ســـمراء البشرة بلمعةٍ ساحرة.

تُـــزيّن يـــداها بنقـــوشِ الحنّـــاء، وعيناهـــا بكحـــلِ الإثمـــد، وجِيـــدها بقـــلادةٍ ورثتهـــا عـــن جدّتها دهباية.

أعـــرضَ عنهـــا وقـــال: اذهبـــي مـــن هُنـــا يـــا شَّيطانة.

ضـــحكت وتابعـــت بـــدلال: لـــن أذهـــبَ حتّـــى ترقيني.

إبراهيم بغضب: لن أفعل.

نظـــرت إليـــهِ وقالـــت: ســـتفعل وإلَّا خرجـــت وصرخت بأنَّكَ قد راودتني عن نفسي.

اتســـعتْ عينـــاهُ مـــن الدهشـــة، لـــم يـــدرِ مـــاذا يفعل؟

اقتربـــت منـــهُ أكثـــر، أعـــرضَ عنهـــا بوجهـــه، وضعت يدها على رقبتهِ فانتفض.

قمر القسوم، هكذا قد أسمتني جدّتي.

نظـــرَ إليهـــا وجبينـــه يتصـــبَّبُ عرقًـــا، ثُـــمَّ حاولَ الخروج من الخيمة لكنَّها منعته.

أتذهبُ وتتركني بمفردي سيّدي.

قالتها بغنجٍ.

ابتعـــدَ عنهـــا فاقتربـــت منـــهُ أكثـــر، تنظـــر فـــي عينيـــه، ضـــربات قلبـــه المُتســـارعة تكـــاد تبلغ آذانها!

نظــرَ فــي عَينيهــا وقــال: أنــا عبــدٌ تقــيّ، لا أفعــل مــا يُغضــب اللَّه، إنْ رغبــتِ بــي فــدُلِني على بيتِ أهلكِ؛ لأذهب إليهم خاطبًا.

تبســمتْ لــهُ وقالــت بــدلال: هيّــا بنــا، فأنــا لا أُطيقُ الصبر.

ســارا حتّــى وصــلا إلــى كــوخٍ عظــيم، أشارت إليهِ وقالت: هذا هو بيت أهلي.

مــا أنْ أنهــت جُملتهــا حتّــى هَــوى شــهاب بعصًــا غليظــة علــى رأسِ إبــراهيم، فســقط على الأرض فاقدًا وعيه.

حملــهُ شــهاب ودخــلَ بــهِ الكــوخ، ثُــمَّ وضــعهُ أمام سيّده.

اقتــربَ منــهُ ونضــح عليــهِ المــاء، ثُــمَّ قــال: قُم يا بُنيّ.

فـــتحَ إبـــراهيم عينيـــه، وجـــالَ ببصـــرهِ المكـــان، رأى شـــابًّا قـــد تعـــدّى الثلاثـــون، وعجـــوزًا فـــاقَ الســـتون، يرتـــدي زيًّـــا مُميّـــزًا، تعلوهُ عِمامة عظيمة.

نهـــضَ مُســـرعًا وتســـاءل: أيـــنَ أنـــا، ومَـــن أنتم؟

اقتـــربَ منـــهُ شـــهاب وقـــال: أنـــتَ بحضـــرةِ مولانا العارف باللَّهِ (تاج السرّ).

نظـــرَ إليـــهِ إبـــراهيم وتـــابع: ومَـــن يكـــون تـــاج السرّ؟

لطمهُ شهاب فأدمى وجهه.

نهـــرهُ تـــاج الســـرّ بقولـــه: اغـــرب عـــن وجهـــي يا شهاب الآن.

شـــهاب بنظـــراتٍ ناريّـــة تجـــاه إبـــراهيم: أمـــر مولانا واجب النفاذ.

أعطـــاهُ تـــاج الســـرّ بعـــض المـــاء، ومســـحَ دمـــه، ثُـــمَّ جلـــسَ علـــى الأريكـــة، وجلـــسَ إبراهيم بجواره.

أنـــا ســـيّدكَ العـــارف بـــاللَّهِ تـــاج الســـرّ، قـــد أمرنـــي الأســـياد بحُســـنِ صـــحبتك، بعـــدما أخبروني بقدومك.

إبـــراهيم مُندهشًـــا: مَـــن هُـــم الأســـياد وكيـــفَ عرفوا؟

تـــاج الســـرّ مُبتســـمًا: ســـتعرف كُـــلّ شـــيءٍ فـــلا تقلق.

إبـــراهيم: أودُّ العـــودة إلـــى القافلـــة، ومـــن ثَـــمَّ السفر إلى مصر.

تـــاج الســـرّ مُبتســـمًا: لـــيسَ قبـــلَ أنْ تأخـــذَ بركتي وآخذ بركتك!

إبراهيم مُتسائلًا: وما هي تلكَ البركة؟

تـــاج الســـرّ: خُـــذ هـــذا المـــاء الطـــاهر، تجرعـــهُ كي تنالَ بركتي وأنال بركتك.

كـــانَ هـــذا المـــاء ســـحرًا بالطاعـــة، تجرعـــهُ إبـــراهيم؛ ليســـهلَ علـــى تـــاج الســـرّ ســـلبه دينه وكرامته.

أغـــواهُ تـــاج الســـرّ، فخُيّـــلَ إليـــهِ أنَّ اللـــواط مـــا هـــو إلَّا ردّ فعـــل طبيعـــي لمَـــن تحابـــا مـــن الذكور!

ظـــلّ معـــهُ ســـتة أشـــهُرٍ يُمارســـانِ فيهـــا الشـــذوذ، حتّـــى تأكـــدَ لتـــاج الســـرّ أنَّ إبـــراهيم لن يعودَ كما كان وإلى أنْ تقوم القيامة.

# الفصل السابع عشر

عادَ إبراهيم إلى كروسكو، شعرَ أباهُ من الوهلةِ الأولى أنَّ ابنهُ لم يَعُد كما كان؛ إذ لاحظَ رخاوةً في كلامه، وميوعة في مشيته، وليونة في سلوكه.

شكَّ بأمرهِ لكنَّهُ لم يُنصت لشكه، حتّى ظهرتْ الحقيقة وتأكد لهُ ما كانَ يخشاه؛ إذ عَلِمَ بشذوذِ نجله، فذهبَ إليهِ ليقتلهُ حيثُ كانَ يُمارس الشذوذ.

لكنَّ أحدًا قد أخبرَ إبراهيم ففرَّ هاربًا من أبيه، لاجئًا لدى قوّات الحماية البريطانيّة.

ظلّ يتنقل من مركزٍ لآخر، حتّى استقرَّ بهِ الحال في القاهرة.

أنشأ بيتًا لممارسةِ البغاء، وحانة خاصّة بالرقص.

مرّت الأيَّام وذاع صيت إبراهيم الغربي، فكانَ اللاهثون خلف شهواتهم يأتونهُ من كُلّ حدبٍ وصوب.

جمعَ الكثير من فتيات الهوى، والغلمان ببيته، احتكرَ أجورهم؛ مُقابل إطعامهم وتوفير مكان لإقامتهم.

كما كانَ يمتهن تجارة الرقيق بجانب تجارة البغاء، ورغم أنَّ القانونَ قد جرّمها إلَّا أنَّهُ كانَ يُتاجر بالفتيات والغلمان سرًّا بعيدًا عن أعيُنِ القانون.

نعمات، تعالي.

نعمات: ماذا تُريدينَ خالة محسنة؟

**محسنة: أُريدُكِ بأمرٍ هام.**

**نعمات: أمرُ ماذا؟**

**محسنة: قد أخبرتُ ولدي زغلول عنكِ، وسأنتظركِ بعدَ صلاة العصر؛ كي آخذكِ إلى زوجكِ.**

**نعمات بفرح وعدم تصديق: أحقًّا خالة محسنة؟**

**محسنة بثقة: أجل، ولكنْ لا تُخبري أهلكِ، قولي لهم أنَّ المعلّمة بديعة تحتاجكِ لتُنّظفي لها المحلّ.**

**نعمات بسعادة: حسنًا.**

**أينَ محسنة؟**

**قالها إبراهيم بغضب.**

ردَّت عليهِ فيفي: قد ذهبت لقضاءِ أمرٍ ما.

قامَ من مقامهِ فعلا صوت المصوغات الذهبيّة التي يتزيّن بها، رفعَ طرف عباءتهُ السوداء، ليسهل عليهِ السير.

وقفَ في وسط الجموع، وقبلَ أنْ يُصدرَ أمرهُ بشأنِ محسنة، كانتْ قد أتت للتوّ.

أسرعتْ إليهِ فقبّلت يده، ثُمَّ التقطت أنفاسها وتابعت: لا تؤاخذني سيّدي، قد تأخرت ولكنْ أتيتُ بخبرٍ عظيم.

إبراهيم: وما هو؟

محسنة: إنْ سمحَ لي سيّدي بالجلوس معهُ على انفراد.

أشـــارَ للجمـــعِ بالانصـــراف، وجلـــسَ علـــى الأريكـــة، جلســـت هـــي عنـــدَ قدميـــه، أخبرتـــهُ بمـــا اتفقـــت عليـــهِ مـــع نعمـــات، تلـــكَ الفتـــاة القاصـــر الفقيـــرة، فـــرحَ بفكرتهـــا أيُّمـــا فـــرحٍ ورحبَ بها.

حـــانَ الموعـــد، تســـللت نعمـــات حتّـــى وصـــلت للمكـــان المُـــراد، هشّـــت لهـــا محســـنة وبشّـــت، وأخذتها وذهبتا إلى البيت.

وصـــلتا، صـــعدتا إلـــى الطـــابق الثـــاني، دلفتـــا غُرفـــة نـــومٍ ذات أثـــاث فـــاخر، ثُـــمَّ قـــدّمت لهـــا محســـنة نوعًـــا مـــن الشـــراب، تجرعتـــهُ وراحـــت فـــي سُـــباتٍ عميـــق، وشـــرعَ أحـــد الـــذكور فـــي اِغتصـــابها، بعـــدما اتفـــقَ مـــع إبـــراهيم الغربـــي علـــى ذلـــكَ مُقابـــل بعـــض الجُنيهات!

محسنة: ما رأي سيّدي فيما ابتدعتهُ من أفكار؟

إبراهيم: أحسنتِ صُنعًا يا امرأة، آهٍ على الزمان!

محسنة: ماذا هناك سيّدي؟

إبراهيم: قد ذكّرني فِعلكِ هذا بما فعلتهُ معي قمر القسوم مُنذُ زمنٍ بعيد!

وبفضلها أصبحتُ إبراهيم الغربي الذي ترينهُ الآن.

عماد، يتناقل النّاس حديث بيت بائعات الهوى، الذي أنشأهُ السيّد أبا العربي مُنذُ أيَّام، إذ كنت مُسافرًا إلى الإسكندريّة.

غضبَ عماد وقال: ولماذا لم تطردوهُ من المنطقة يا يحيى؟

يحيى مُطأطَأ رأسه: لم يستطع أحد إيقافه أو الوقوف في وجهه.

نهضَ عماد وذهب إلى قسمِ الشرطة، أبلغَ عن البيت، وما هي إلَّا دقائق معدوداتٍ وكانَ السيد أبو العربي، وسائر مَن في البيت رهن الاحتجاز.

وقفَ عماد أمام البيت، يُلقي بعض أشعارهِ بلهجتهِ المُميّزة:

أيّووووه يا جدع

يا اللي بتسطنتع

بفلوس ولايا

وبالغواية

عمّال بتتمتع

لابس توب رجولة

لو عنها يوم تسمع

بقى ع الرذيلة تاخد عمولة

يا سُكري شارب الندالة

ومنها بتكربع

مالك مكان بينا

ولا تيجي على سكة

حلّ بشيطانك عنّا

أنت يا دوب مرتجع

اخص ياجدع.

# الفصل الثامن عشر

الأوضاع العامّة غير مُطمئنة سيّدي.

قالها جاك.

نهضَ السير اللنبي من مكتبه، وهزَّ رأسهُ قبلَ أنْ يُضيف: كيفَ عرفت؟

جاك بقلقٍ: تشهد مصر هذهِ الأيَّام حالة من الغليان الشعبي، خصوصًا بعدَ نفي سعد باشا زغلول.

السير اللنبي: لا تقلق، سيكون كُلّ شيءٍ على ما يُرام.

ماذا نفعل يا مولانا؟

قالها عهدي.

قامَ الشيخ خاطبًا فيهم بالحثِّ على عدمِ الخضوع للاحتلال، والتنظيم للقيام بثورة

شـــعبيّة، تضـــم كُـــلّ فئـــات المجتمـــع المصري.

فـي صـباح اليـوم التـالي، يـوم التاسـع مـن مـارس لعـام ألـف وتسـعمائة وتسـعة عشـر، شـهدت مصـر حـدثًا عظيمًـا لـم يَكُـن يحـدثُ مـن قبـل؛ إذ قـامَ الشـعب المصـري العظيم بعمل ثورة شعبيّة هائلة.

ورغـم أنَّ الطُـلّاب والمُثقفـون هُـم مَـن بـدأوا الثـورة، إلَّا أنَّ جميـع فئـات المجتمـع قـد شـاركتهم، رافضـين وجـود الاحـتلال البريطاني على أراضيهم.

لا يُوجد أحد بالشوارع.

قالها حسب اللَّه.

أينَ ذهبَ الجميع؟

قالتها ريا.

حسب اللَّه بعدما جلسَ بجوارها: قد اختبأوا في بيوتهم حينَ عَلموا بأمرِ الثورة.

ريا مُتسائلة: وهل شاركَ فيها أحد؟

حسب اللَّه: الكثير من الطُلّاب كما يُقال.

ريا: دعنا منهم، ماذا سنفعل؟

حسب اللَّه: بخصوصِ ماذا؟

ريا: بخصوصِ عملنا، فالزبائن لن تأتينا، وبائعات الهوى لن يصبرنَ علينا إنْ لم نُطعمهنَّ.

حسب اللَّه بعدما ضربَ كفّه بالأخرى: الحقّ معكِ، خصوصًا أنَّ القوات

الانجليزيّة قد شدّدت دورياتها، ومنعت الدخول والخروج من الأحياء.

مرّت الأيَّام وزادَ قحط ريا وحسب اللَّه، وسكينة وعبد العال، فلم يَعُد يأتيهم زبائن من راغبي المُتعة الحرام، حاولوا إعادة الوضع كما كانَ عليهِ قبلَ الثورة لكنَّهم فشلوا.

تركتهم بائعات الهوى مُنذُ أشهر، وذهبنَ للعمل الخاصّ بعيدًا عنهم.

وفي يومٍ من الأيَّام جاءتهم إحدى العاملات السابقات، لتسألهم عن حالهم، وتُخبرهم بحالها، وما أصبحت عليهِ من ثراءٍ جعلها كَالصاغة المُتنقلة.

رأتها ريا فزاغ بصرها على زينتها من الحُليّ، ثُمَّ انتبهت لها وهي تُغازل حسب

اللَّه، وهـــو يـــردّ لهـــا المغازلـــة أضـــعاف بنظراتٍ جريئة.

غـــادرت الضـــيفة البيـــت، لكنَّهـــا لـــم تُغـــادر عقـــل ريـــا؛ إذ فكّـــرت وفكّـــرت وفكّـــرت، حتّـــى هـــداها تفكيرهـــا لســـرقة مصـــاغ خضـــرة بنـــت اللامي.

فكّـــرتْ كثيـــرًا فـــي طريقـــة لســـرقة خضـــرة دونَ أنْ تشـــعر بهـــم، فكـــانَ السُـــكر هـــو الحـــلّ الأمثـــل بالنســـبةِ لهـــا، حتّـــى ذهبـــت صـــبيحة اليـــوم التـــالي إلـــى ســـوق (زنقـــة الســـتات)، وهُنـــاكَ وجـــدت حـــلًّا جعلهـــا تـــدخل التـــاريخ من أقبحِ أبوابه.

# الفصل التاسع عشر

سوق كبير لكنَّهُ ضيّق الأزقة، مُزدحم الباعة، محلّاته تصطف على الجانبينِ؛ لعرض البضائع المُتنوّعة.

كانَ هو قِبلة التسوّق بالنسبةِ لنساءِ الإسكندريّة؛ لما بهِ من توفيرِ احتياجتهنَّ بسعرٍ مُناسب.

تنوّعت بضائعهُ ما بينَ أقمشة وملابس، ومجوهرات وإكسسوارات، بالإضافةِ للأغذيةِ والعِطارة.

أخذت تتجوّل هُنا وهُناكَ حتّى اصطدمت بإحدى السيّدات، اعتذرت لها، فقبلت الأُخرى اعتذارها، وسألتها إنْ كانتْ

تعـــرف ســـكنًا فارغًـــا بحـــارة علـــي بـــك الكبير؛ كي تنقل إقامتها عليهِ.

تبســـمتْ لهـــا ريـــا وقالـــت: بـــالطبعِ طلبـــكِ عندي، ولكنْ ما اسم الجميلة؟

أجابتهـــا ببســـمةٍ عذبـــة: معروفـــة بنـــت معروف.

ربتـــت ريـــا علـــى كتفهـــا بحنـــانٍ وتابعـــت: عاشـــت الأســـامي وعِشـــتِ يـــا شـــابّة، أنـــا ريـــا بنت علي همّام، وهذهِ أُختي سكينة.

نقطـــن إحـــدى البيـــوت بحـــارة علـــي بـــك الكبيـــر مـــع أزواجنـــا، هـــلّا أتيـــتِ معنـــا؛ لنُقـــدّمَ لكِ واجب الضيافة إنْ رغبتِ.

معروفـــة بضـــحكٍ: بـــالطبعِ أرغـــب، فأنـــا مُتعبة وبحاجةٍ إلى بعضِ الراحة.

ذهبنَ إلى البيت، فتحت ريا الباب ودلفن.

غُرفة رحبة بعض الشيء، جلسنَ على البساط البدائي، قدّمت لها ريا كأسًا من الخمر، تجرعتهُ ثُمَّ دارَ الحديث.

أمَا علمتُما بما حَدَث؟

قالتها معروفة بتشويق.

ريا: عن ماذا تتحدّثين معروفة؟

معروفة بحماس: عن اختفاء النساء.

سكينة بلامُبالاة: يبدو أنَّهُنَّ قد ذهبنَ مع العاشقين.

ريا: كفانا اللَّهُ هذا الشرّ، فنحنُ من بيتِ الأحرار ولا نقبل بمثلِ هذهِ الفِعال.

ضحكت معروفة وتابعت: ليسَ الأمر كما تظنّانِ.

ريا: إذًا ماذا؟

نظـــرت إليهمـــا معروفـــة وقالـــت: ســـرقة المصاغ!

وهُنا تسارعت دقات قلبيهما.

ضـــحكت ثانيـــةً وقالـــت: قـــد تبـــيّنَ أنَّ أحـــد الرجـــال هـــو الســـفّاح، الـــذي يقـــوم باصـــطيادِ بائعـــات الهـــوى، ومـــن ثَـــمَّ ســـرقة مصـــاغهنَّ وقتلهنَّ.

ريا: أوليسَ من سائلٍ عنهُنّ؟

معروفـــة: بائعـــات الهـــوى لا يســـأل علـــيهنَّ أحـــد، بعـــدما تبـــرأ مـــنهُنَّ الأهـــل؛ لـــذا كـــانَ مـــن الســـهلِ اســـتدراجهنَّ وســـرقة مصـــاغهنَّ الثمينـــة، ومـــن ثَـــمَّ بيعهـــا والتمتـــع بثمنهـــا في هذا الزمن العصيب.

تبسمتْ ريا ونظرت لسكينة، ثُمَّ تسائلت: أوكانَ يدفنهنَّ بالصحراء؟

معروفة: لا، كانَ الأمر يتمّ بداخل بيته!

ريا وقد قطبت حاجباها: أولم يَكُن لهُ جيران؟

معروفة: بلى.

ريا: ألم تُزكم رائحة الموتى آنافهم؟

معروفة: فلماذا صنعوا البخور؟

ريا: لا أفهم.

معروفة: كانَ يأتي بالواحدة، فيسقيها الخمر حتّى يُسكر عقلها، ثُمَّ يقوم بقتلها وسلبها مصاغها، وبعدها يحفر لها قبرًا بأرضِ الغُرفة فيدفنها، ويُشعل البخور.

ريا: أويفعل كُلّ ذلكَ بمفرده؟

معروفـــــة: بـــــل بمعاونـــــة عصـــــابة مـــــن أصدقائه.

ريا: هذا هو الحلّ!

معروفة: حلّ ماذا؟

ريـــا بعـــدما ربتـــت علـــى يـــدها: لا تشـــغلي بالكِ حبيبة.

حفظـــت ريـــا الخُطّـــة بعقلهـــا، وأرســـلت لرجالهـــا الأربـــع، فجـــاءوا علـــى وجـــهِ السرعة.

أخبـرتهم بمـا يـدور بعقلهـا مـن أحقيّـتهم فـي مصـاغ خضـرة، وعليـهِ فقـد أحلّـت لهـم سـرقتها بالطريقـة التـي اعتمـدتها، وهـي أنْ يسـقيها أحـدهم الخمـر حتّـى السُـكر، وبعدها يسلبوها مصاغها.

حضرت خضرة بُناءً على موعدٍ مُسبق، كانَ الجميع في انتظارها، ريا وسكينة، وحسب اللَّه وعبد العال، وعُرابي وعبد الرازق.

جلست بصُحبتهم، شاركتهم تناول الطعام، وشراب الخمر.

وحينَ تأكدوا من سُكرها، شرعوا في سلبها المصاغ، وهُنا كانتْ المُفاجأة؛ إذ صرخت فيهم ونعتتهم باللصوص.

أسرعَ أحدهم إلى الجرّة فأدخلَ منديلهُ فيها، وأخرجهُ مُبتلًّا بالماء.

اعتصرهُ وبسرعةٍ وضعهُ على فمها وأنفها، حتّى فارقت الحياة، فقاموا بسلبها مصاغها وتجريدها من ملابسها، وحفروا لها بأرضِ الغُرفة، وألقوا

بجثّتها وأهالوا عليها التراب، ثُمَّ أعادوا البلاط كما كان وكأنَّ شيئًا لم يَكُن!

وفي صباح اليوم التالي، ذهبت ريا بصُحبةِ شقيقتها سكينة إلى الجواهرجي، لبيعِ المصاغ، وقلبها يكاد يقفز من صدرها فرحًا بما ستجنيهِ من مال، ناسبةً الفضل في نجاحِ خُطّتها إلى معروفة بنت معروف، التي أوحت لها بخطوات إرتكاب أبشع الجرائم، ثُمَّ اختفت وكأنَّها شَيطان!

مَرَّ عامان، وها هو وليم الانجليزي يصطحب سكينة بنت علي همّام إلى كراكون اللبان، ويوجّه لها تهمة قتل وإخفاء رفيقتهُ (فردوس فضل الله)؛ مُستندًا إلى الشال الذي تضعهُ سكينة

على كتفيها، وهو بذاتهِ الشال الذي أهداهُ لفردوس ولا يوجد سواهُ في مصر كُلّها.

وبمواجهة سكينة اعترفت بكُلِّ شيءٍ، وذاعَ خبر عصابة ريا وسكينة الأرجاء.

فرحَ العامّة من أهالي الإسكندريّة بخبرِ إعدام ريا وسكينة علي همّام، حتّى أنَّ البعضَ كانَ يتغنّى بالخبر.

طالبهُ الحضور أنْ يُلقي على أسماعهم بعضًا من شِعر الربابة.

جلسَ أحمد بمُنتصفِ المقهى، وأخذ يُلقي الشِعر بصوتهِ العذب، وأدائهِ المُميّز:

حلوة الصلاة ع الزين

حلوة الصلاه ع الزين

شوفوا الحكاية منين

يا ناهب مال غيرك

دلوقتي مالك فين؟

روحت وراح مالك

وفايت الاتنين

ف التربة هتجاوب

ف التربة هتجاوب

إزاي على الملكين؟

دهبك ما راح يشفع

ف القبر لم ينفع

ميزان بلاويكم هيطب

يا خاينين

دهب قارون خده مين؟

وفين غرور فرعون؟

كُلّهُ بلا فايدة

والقتل نار قايدة

ملت قلوبهم طين!

# الفصل العشرون

مولانـــا المُعظـــم، هـــا قـــد حضـــرتُ يـــا ســـيّدي، مُرني فأنا خادمكَ المُطيع.

قالها آخذًا وضع الإنحناء.

إبلـــيس: قـــد خطـــرت علـــى بـــالي فُكـــرة، لـــم أجد إلَّاكَ أهلًا لها.

ردّ بفخرٍ: هذا من فضلكم عليَّ مولاي.

إبلـيس: مـا رأيُـكَ فـي نشـر المُتعـة بـينَ أهـل الجزيرة العربيّة؟

أجـــابَ بحمـــاس: فكـــرة رائعـــة بكُـــلِّ تأكيـــد مولاي، ولكنْ كَيف؟

إبليس: يُعجبني ذكاءكَ الحاد بُنيّ.

ردَّ بخجل: بعض ما عندكم مولاي.

إبلـــيس: ستتجســـد فـــي صـــورةِ امـــرأة شـــابّة، فاتنـــة، ممشـــوقة القـــوام، جذّابـــة، غنجـــاء؛ كي نستطيع تنفيذ خُطّتنا على أكملِ وجه.

ســـتقوم بتخصـــيص خيمـــة كبيـــرة، تعلوهـــا رايـــة حمـــراء، لجـــذب الانتبـــاه، وللتعريـــف بسلوكك الغريب عليهم.

ردَّ بصوتٍ فَرِح: حسنًا مولاي.

إبلـــيس: آشـــماداي لتكـــونَ ماتعـــة ابنـــةَ مـــاتع، الغنجـــاء، ذات الحُســـن والـــدلال، المُتاحـــة لراغبي المُتعة.

آشـــماداي بحمـــاسٍ شـــديد: كمـــا تُريـــدُ مولاي، ثُمَّ انصرف.

تـــذكّر آشـــماداي ذلـــكَ الحـــوار، حـــينَ أمـــرهُ إبلـــيس بـــإغواءِ بنـــي البشـــر بـــدءًا مـــن الجاهلية وحتّى قيام الساعة.

قـــد نجـــحَ آشـــماداي فـــي مهمتـــهِ، وأدّاهـــا على أكمـلِ وجـهٍ إلـى الآن، لكـنَّ أمـرًا مـا قـد أوقفهُ عن المواصلة.

ما الذي أوقفكَ بُنيّ؟

قالها إبليس.

آشـــماداي آخـــذًا وضـــع الإنحنـــاء: لا أدري ماذا أفعل معهم مولاي؟

إبليس بدهشةٍ: ماذا؟

آشـــماداي: قـــد نفـــدت أفكـــاري، فـــلا أجـــد طريقـــة أدخـــل بهـــا إلـــى عـــالمهم، بعـــدَ شخصيّة معروفة بنت معروف!

إبليس: أينَ ذكاءكَ الحادّ؟

آشـــمادايّ: مـــولاي هُـــم فَســـدة، ليســـوا بحاجـــةٍ إلـــى امـــرأةٍ تُغـــريهم، وتُعلّمهـــم الفساد الأخلاقي.

إبلـــيس: حتّـــى وإنْ كـــانوا، لـــن يصـــلوا إلـــى أقصى درجات الفساد دونَ تدخلنا.

آشمادايّ: صدقتَ مولاي.

إبلـــيس: انظـــر إلـــى المُتـــاح فـــي عـــالمهم وأدخل لهم عن طريقه.

فكّرَ آشمادايّ ثُمَّ قال: وجدتُها.

# الفصل الحادي والعشرون

بلـــدة صـــغيرة بحضـــن الجبـــل، تمـــدينَ أهلهـــا وليتهم لم يفعلوا!

إذ خلعـــت النســـوة برقـــع الحيـــاء _إلَّا مَـــن رَحِـــمَ رَبّـــي، ترجلـــت الإنـــاث، وتأنـــثَ الـــذكور، تاهـــت الهويّـــة بـــينَ تقليـــدٍ أعمـــى، وانصـــياعٍ لعوائـــد عقيمـــة دخيلـــة علـــى المجتمع.

ظُلمـــاتٌ بعضـــها فـــوقَ بعـــض، الزمـــان يمـــرّ دونَ توقف، والتاريخ يسطر ولا يرحم.

ماجدة، هيّا بنا قد تأخرنا.

قالها وهو يَحملُ صغيره.

ماجدة قادمة من الداخل: حسنًا، هيّا بنا.

طــرقَ البــاب، فــتحَ لــهُ عجــوزًا قــد فــاقَ الستون.

صافحهُ وتعانقا، ثُمَّ أعطاهُ الصغير.

حللتم أهلًا ووطئتم سهلًا.

قالها وهو يُداعبُ حفيده.

قبّلــت ماجــدة جبينــه، وتابعــت: لا رحمنــا اللَّهُ إيَّاكَ أبي.

ماجــدة: محــروس اغســل يــديكَ وأســرع لنتناول الطعام.

محروس مُبتسمًا: حسنًا حبيبتي.

فضّــلَ محــروس أنْ يقضــي آخــر يــوم بإجازتــهِ مــع أُســرة زوجــهِ ماجــدة؛ إذ يُعــدّها بمنزلةِ أُسرتهِ الراحلة.

قضـــيا وقتًـــا مُمتعًـــا وعـــادا إلـــى بيتهمـــا الصغير.

أعـدّت لـــهُ ماجـدة مـــا يلزمـــهُ مـــن ملابـــس، وكـذا مـــا يحتاجـــهُ مـــن أغـراض، ثُـمَّ تسـامرا وناما.

وفـــــي الصـــــباحِ البـــــاكر، ودّعَ ماجـــــدة ومـــــؤمن، وحمـــــلَ حقيبـــــة الســـــفر خاصّـــــته وغادر.

مـــــرّت الأيَّـــــام وزادَ شـــــوق ماجـــــدة إلـــــى زوجهـــــا، راســـــلتهُ عبـــــر إحـــــدى تطبيقـــــات المُراســـــلة، وطلبـــــتْ منـــــهُ المجـــــيء أو أنْ يأخذها لتُقيم معه.

لكنَّـــهُ لـــم يســـتطع أخـــذها لظـــروف عملـــه، قـــرر المجـــيء، فأعـــدَّ العُـــدّة وأثنـــاء مُغادرتـــهِ

للســـكن الـــذي يُقـــيم بـــهِ، دهســـتهُ ســـيّارة كانتْ آتية بسرعة جنونيّة.

مـــاتَ محـــروس، ماتـــت معـــهُ الآمـــال، ترملـــت ماجـــدة ذات الثلاثـــين عـــام، أصـــبحَ مـــؤمن يتيمًا.

اســـودت الـــدُّنيا بوجههـــا، تركـــت منـــزل الزوجيّة وأقامت بمنزلِ والدها.

قطعـــت عهـــدًا علـــى نفســـها ألَّا تتـــزوّج، تحيـــا لأجلِ ابنها وفقط.

لكـــنَّ الـــدُّنيا لـــم تَكُـــن عونًـــا لهـــا علـــى الوفـــاءِ بعهـــدها؛ إذ حـــاولَ بعـــض المُنتســـبين للرجولـــة أنْ يوقعـــوا بهـــا فـــي شـــباكهم، لكنَّها قد زجرتهم واكتفت بما فعلت.

تمـــرّ الســـنون، ويـــزداد تـــربص بعـــض الـــذكور بهـــا؛ هـــي أرملـــة إذًا هـــي مُتاحـــة،

هكـــذا ينظـــرونَ إليهـــا، لكنَّهـــا قـــد أوقفـــتهم عنـــدَ حـــدّهم، وقامـــت بتحريـــر محضـــرٍ ضـــدهم، فقـــاموا بتهديـــد أباهـــا العجـــوز بالتحـــدّث عنهـــا بســـيء الكـــلام، ولـــن يســـتطيع أحـــد تكـــذيبهم، لأنَّهـــا أرملـــة تحيـــا بلا زوج.

رضـــخت لـــرغبتهم وتنازلـــت عـــن المحضـــر، بكت كثيرًا حتّى كادَ كبدها أنْ يذوب!

تقـــدّمَ لخطبتهـــا أحـــد الرجـــال، رأتـــهُ مُناســـبًا، وجـــدت بـــهِ مـــا ينقصـــها، وجـــدت بـــهِ الأمـــان، والعـــون والســـند، لكـــنَّ أُمّهـــا قـــد وقفـــت فـــي طريقهـــا؛ مُعلّلـــةً أنَّـــهُ لا حـــقَّ لهـــا، ففـــي شرعهم لا زواج لمَن ماتَ عنها زوجها!

حرّمـــوا عليهـــا مـــا أحلّـــهُ اللَّهُ لهـــا، فقـــط لأنَّ عـــاداتهم التليـــدة تقضـــي بـــأنْ تمـــوت المـــرأة مع زوجها، وإنْ كانتْ على قيدِ الحياة!

رضـــخت لهـــم ولعـــاداتهم، فمـــا سَـــلِمَت مـــن أشباه الرجال وتربصهم بها.

أتعلمـــونَ أنَّ ماجـــدة أرملـــة محـــروس قـــد زادَ جمالها بعدَ موتِ زوجها؟

قالها شبل لأصحابهِ على مقهى البلدة.

ردَّ عليـــهِ جـــاويش: بـــل تفجـــرت أنوثتهـــا يـــا رجـــال، حتّـــى تكـــاد تجـــزم أنَّهـــا لـــم تتـــزوّج بعد!

صـــادق بعـــدما نفـــث التبـــغ: هكـــذا هُـــنَّ معشـــر النساء يُظهرنَ جمالهنَّ بعدَ فقدِ الأزواج.

شـــبل: قـــد ســـكنت تلـــكَ المـــرأة عقلـــي، ولا تُريدُ أنْ تخرجَ منه.

جاويش: أتنكحها؟

شـــبل: إذ كُنـــتُ لـــم أتـــزوّج بكـــرًا أأتـــزوّج ثيّبًا؟

صـــادق: أنـــت تُريـــدها لقضـــاء حاجتـــكَ بهـــا لا أكثر.

شـــبل: بالضـــبط هـــذا مـــا أُريـــد، لكـــنْ كيـــف لا أدري!

صادق: حلّ هذا الأمر عندي.

شبل: كيف؟

صـــادق: سأُســـلّط عليهـــا نعمـــات، وهـــي كفيلـــة أنْ تجعلهـــا خادمـــة مُطيعـــة لأوامـــرك ورغباتك.

شبل: أتقصد نعمات الغجريّة؟

صادق: أجل.

جاويش: ومن أينَ أتيت بهذهِ الثقة؟

صادق: هي خادمتي المُطيعة.

شبل مُندهشًا: وماذا فعلتَ لها كي تكون مُطيعة لك؟

صادق: لا شيء سوى بعضًا من الجرامات للمُخدرِ الأبيض، جعلها مطيعة لي.

شبل: قد فهمت، لا تُخبر نعمات، فأنا مَن سيُنفذ هذهِ المهمة.

غسلت الأواني، وجلست تُذاكر لابنها الدروس آل مدرسيّة.

بينما هي كذلك رنَ هاتفها، أمسكت بهِ فرأت أنَّ المتصل مجهول الهويّة، أغلقت الهاتف وأكملت المُذاكرة لابنها.

سمعت صوت أُمّها وهي تقول: لا تخجل منها وأخبرها بالحقيقة، أخبرها بأنَّ المبلغ الذي كُنّا ندّخرهُ قد نفدَ عليها وعلى ابنها، لا ذنبَ لنا أنَّ زوجها كانَ حديث عهدٍ بالشركة حينَ مات، مُرها بالبحثِ عن عمل.

نزلت كلمات أُمّها كوقعِ الصاعقة على قلبها، أسرعتْ إلى غرفتها، لملمت أغراضها وحزمت أمتعتها وعادت بابنها إلى بيتها.

قامت بتنظيف وترتيب البيت حتّى أُذنَ لصلاة الفجر، فصلّت ونامت.

أيقظهـــا صـــوت رنـــين الهـــاتف، أمســـكت بـــهِ ودونَ أنْ تشـــعر ضـــغطت علـــى زر الـــردّ، ســـمعت صـــوتهُ يُناديهـــا، لـــم تُصـــدّق أُذناهـــا؛ إذ الصـــوت لـــيسَ بغريـــبٍ عليهـــا، إنَّـــهُ صوته.. صوت محروس!

# الفصل الثاني والعشرون

مَن المُتصل؟

قالتها ماجدة بلهفة.

أتاها الردّ: أنا محروس حبيبتي.

ماجدة باكية: كيف؟

_لم أمت يا امرأتي.

ماجدة: أنتَ مُحتال.

_أنا زوجكِ أبا مؤمن.

ماجدة بصراخ: لاااااا.

استيقظت لترى نفسها ممسكة بالهاتف، نظرت إليهِ فوجدت رقمًا غريبًا قد حاولَ الاتصال بها عِدّة مرّات.

تجاهلتــهُ كمــا تجاهلــت مــا رأتــهُ بكابوســها، وأســرعت إلــى المطــبخ لتُعــدَّ لمــؤمن وجبــة الفطور.

ذهبــت للبحــثِ عــن عمــلٍ بعــدما أوصــلت مؤمن إلى المدرسة.

ظلّــت هكــذا عِــدّة أيَّــام، تــودع مــؤمن المدرســة ومــن ثَــمَّ تــذهب للبحــثِ عــن عمل، ولكن دونَ جدوى.

إذ لا حاجــةَ للبلــدة بصــيدلانيّة مــاهرة، هُــم يُفضّلونَ الذكور في العمل وكُلّ شيء.

حتّــى أنَّ الــبعض قــد عيّرهــا بشــهادتها ذات يوم، لكونها أُنثى!

ذات ليلــة، ســمعت طرقًــا خفيفًــا علــى بــابِ شــقتها، وقفــتْ وراء البــاب، وتســاءلت بخوفٍ: مَن الطارق؟

لم يُجبها أحد، ولا زالَ الطرق مُستمرًا.

زادَ خوفها، فأسرعتْ إلى ابنها رأتهُ نائمًا قبّلت جبينهُ وأغلقت عليهِ غُرفته، ودلفت غرفتها أمسكت بصورة زوجها، احتضنتها وهي تبكي ثُمَّ نامت.

حاولتُ الإيقاع بها لكنْ دونَ جدوى.

قالها شبل.

صادق: لأنَّ محاولاتك خاطئة، حاول معها عن طريقِ حاجتها للعمل.

شبل وقد اتسعتْ حدقتاه: كيفَ غابت عنّي هذهِ الفكرة؟

عرضَ عليها شبل التوسط لها في إيجاد فرصة عمل مُناسبة؛ إذ هو ابنُ أحد

أثريـــاء البلـــدة، لكنَّهـــا رفضـــت؛ لعِلمهـــا بمـــا يُريدُهُ في المقابل.

فـــي إحـــدى الأيَّـــام جـــاءت امـــرأة غريبـــة عـــن البلـــدة، تُريـــدُ الإقامـــة بهـــا، ســـمحَ لهـــا الأهـــالي، فأقامـــت بـــذات البنايـــة التـــي تُقـــيم بها ماجدة.

جمعتهما الصداقة بعدَ شهرٍ من إقامتها.

رأتهـــا حزينـــة فســـألتها عـــن الســـبب، أخبرتهـــا ماجـــدة بمـــا تمـــرّ بـــهِ ظـــروفٍ عصـــيبة، حتّـــى أنَّهـــا لـــم تســـتطع دفـــع مصـــروفات الدراســـة لابنهـــا، فقـــاموا بفصلهِ من المدرسة.

أعطتهـــا ليـــدا مـــا تحتاجـــهُ مـــن مـــال، وأوصـــت أحـــد معارفهـــا بتقـــديم أوراق مـــؤمن لإحـــدى مدارس اللغات.

شـــكرتها ماجـــدة كثيـــرًا، وحمـــدت ربّهـــا أنْ وضعها بطريقها؛ لتهوّن عليها.

لـــم تَكُـــن تعلـــم ماجـــدة مـــا تُخطّطـــهُ لهـــا ليـــدا حتّـــى فاجأتهـــا بعـــدَ عِـــدّة أشـــهُرٍ، حـــينَ طالبتها بما أعطتهُ لها من مال.

حزنـــت ماجـــدة كثيـــرًا وحاولـــت تـــدبير المبلـــغ لكنْ دونَ جدوى.

أخبرتهـــا بأنَّهـــا لا تمتلـــك وظيفـــة، لـــذا لـــن تستطيع سداد المبلغ.

تبســـمتْ لهـــا ليـــدا وقالـــت: ســـأدلكِ علـــى وظيفـــة تســـتطيعينَ الســـداد مـــن خلالهـــا، بـــل وجمـــع الكثيـــر والكثيـــر مـــن الكنـــوزِ والأموال.

ماجـــدة بـــلا مُبـــالاة: أهـــي مغـــارة علـــي بابـــا وسأكون أنا الحرامي؟

ليدا: بل ستكونين أنتِ المغارة بذاتها.

ماجدة مُتسائلة: كيف؟

ليدا: لحظة واحدة، ثُمَّ قامت وتابعت: هيّا تعالي لأُوريكِ.

فتحت باب إحدى الغُرف ودخلتا.

غُرفة معزولة عن العالم بالمعنى الحرفي للكلمة؛ مليئة بالكاميرات والهواتف الذكيّة، بالإضافةِ إلى الكثير من مساحيقِ التجميل.

ذُهلت ماجدة ممّا رأتهُ وتساءلت: ما هذا؟

ليدا: هذا هو عالمي الذي أجني من خلالهِ ثمار السعادة دونَ تعب.

ماجدة: أهو أستوديو؟

ليدا: نحو ذلك.

ماجدة: ماذا تفعلينَ هُنا؟

ليدا: انتظري وستُشاهدين.

مـرّت سـاعة وكانـت ليـدا قـد تغيّـرت تمامًـا، حتّـى أنَّ ماجـدة حسـبتها امـرأة أُخـرى، ارتـدت ثوبًـا قصـيرًا يُحـدد مفاتنهـا، يكشـف أكثـر ممّـا يسـتر، وتزيّنـت بـالكثير مـن مسـاحيقِ التجميـل، والإكسسـوارات، بالإضـافةِ إلـى وضـع عدسـات لاصـقة تجميليّة بعينيها لتبدو وكأنَّها طبيعيّة!

كمـا وصـلت شـعرها بشـعرٍ مُلّـون، ووقفـت أمـامَ الكـاميرا تتـراقص وتضـحك، ويكأنَّهـا مجنونة!

انتهت ممّا تفعلهُ وطلبت من ماجدة أنْ تفعل مثلها، لكنَّ ماجدة رفضت، وغادرت على الفور.

حاولت مع ماجدة لكنَّها صدتها، فقامت بتقديمِ وصولات الأمانة _التي وقعت عليها ماجدة، إلى النيابة.

لم يذهب أحد لقضاء دينها، عدا شبل، ذهبَ إليها ودفعَ إلى ليدا المبلغ، وأخرجها من المحبس.

لم تتوقع ماجدة مجيئه، شكرتهُ وعادت إلى بيتها.

زادَ خوفها من شبل؛ إذ تعلم ما يُريدُهُ منها، لكنَّها استسلمت للنومِ وراحت في سُباتٍ عميق.

مــرّت الأيَّــام وأرادت ليــدا الســفر إلــى حيــثُ جــاءت، فتركــت مــع ماجــدة مفتــاح شــقتها، وقالــت لهــا: هــذهِ الشــقة قــد صــارت ملكًــا لــي كمــا تعلمــين، خُــذي هــذهِ المفــاتيح رُّبمــا تحتاجينَ إليها يومًا ما.

إنْ ضــاقت بــكِ الــدُّنيا ادخلــي الغُرفــة، واخلعــي ملابســكِ تجنــي ملايــين الجُنيهــات، لا تحرمــي نفســكِ الحيــاة، لمــاذا تقبلــينَ بالمذلة وفي يدكِ أنْ تكوني سيّدة أعمال؟

لا تتعجلــي الأمــر، الــدُّنيا ليســتْ علــى حــالٍ واحدة، هذهِ المفاتيح خُذيها.

غــادرت ليــدا بعــدما ائتمنــت ماجــدة علــى شقتها.

تقــدّم شــبل لخطبتهــا، وافــقَ أبواهــا عليــهِ دونَ أنْ يأخذا رأيها!

سألها شبل قبلَ عقد القران إنْ كانتْ ترغب في الزواج منهُ أم لا؟

فأجابتهُ بالموافقة.

مرّت ستة أشهُرٍ على زواجهما، ومات عنها زوجها الثاني؛ نتيجة حادث سير.

طردها والداهُ من شقتهِ؛ إذ لم يُرحبا بزيجتهِ منها.

عادت إلى بيتها بصُحبةِ ابنها وبطنها مُنتفخ استعدادًا لقدومِ آخر.

ماتَ أباها، ولحقت بهِ أُمّها قبلَ شهرين، وعادت الشقة لمالكها، وها هي تضع مولودها الثاني.

وضعت مولودًا جميلًا، أسمتهُ حسن، كما تمنّى أباه.

مــرّت الأيَّــام وعــادت ليــدا مــن جديــد؛ لتقــوم بتحويــل شــقتها إلــى مركــز تجميلــي نســائي، ظــاهره التــزيّن والتجميــل، وباطنــه إفســاد أخلاق الذاهبات إليهِ.

كانــتْ تســتقطب المُطلّقــات والأرامــل، وتوصــلهنَّ بأشــباه رجــال مــن خــارج البلدة؛ فيذهبنَ إليهم لمُمارسةِ البغاء.

# الفصل الثالث والعشرون

أحسنتَ عملًا يا بُنيّ.

آشماداي: خادمكَ المُطيع مولاي.

إبليس بفخرٍ: بل تلميذي النجيب.

آشماداي: رهن إشارتكَ مولاي.

إبليس: كيفَ أقنعتهم بالحرام؟

آشـــماداي: زيّنتـــهُ لهـــم مـــولاي، فهرولـــوا خلفـــهُ مُنســـلخينَ مـــن قـــيمهم ومبـــادئهم، وقبلَ كُلّ هذا دينهم!

إبليس: أوتركوا دينهم؟

آشـــماداي: مـــا فائـــدة الـــدين إنْ كـــانَ لا يتعدّى وجوده بطاقة إثبات الشخصيّة؟

قـــد جهـــرَ أتباعنـــا بأفكـــارهم المُناهضـــة لقـــيم مُجتمعـــاتهم، بـــل صـــاروا هُـــم المعـــول الـــذي يهدم كُلّ ثابت من ثوابتها.

إبليس: فخرًا بكَ آشماداي.

آشـــماداي: بـــل فخـــرًا بأتباعنـــا الـــذينَ قـــاموا بتلبيـــة الطلبـــات، وإنشـــاء تطبيقـــات للبغـــاء والانحـــلال، وســـلب طاقـــة وحيويـــة الشـــباب، وجعلهم يعيشونَ في عالم مُغاير للواقع.

إبليس: من أينَ جاءتك الفكرة؟

آشـــماداي: جـــاءتني مـــن واقعهـــم؛ إذ وجـــدت التكنولوجيـــا قـــد أخـــذت حيّـــزًا كبيـــرًا مـــن حيـــاتهم، فلـــم أجـــد بابًـــا أفضـــل منهـــا لأُرســـي قواعدي وأُنفذ مُخطّطي.

إبلـــيس: أحســـنتَ ولـــدي، هـــذا هـــو فـــن استخدام المُمكن.

آشـــمادايَ آخـــذًا وضـــع الإنحنـــاء: الفضـــل لكم مولاي.

تـــدهورت أحـــوال المُجتمعـــات العربيّـــة؛ نتيجـــة الاســـتخدام الســـلبي للإنترنـــت، فســـدت الأخـــلاق، وظهـــرت الخلاعـــة والميوعـــة علـــى الـــذكور _إلَّا مَـــن رَحِـــمَ رَبّـــي، بينمـــا الخشـــونة أصـــبحت ســـمتًا لبعضِ الإناث!

امـــتهنَ الـــبعض الدياثـــة، فهـــذا يعـــرض امرأتـــهُ مُقابـــل المـــال، وذاكَ يُجبـــر أُمّـــهُ علـــى الظهـــور، وآخـــر يُمســـكُ بالكـــاميرا ليُصـــوّرَ مُقدمات ومؤخرات امرأته.

لـــيسَ العيـــب فـــي التطبيقـــات والوســـائل المُســـتحدثة، لكـــنَّ العيـــبَ فـــيمَن يســـتخدمها

بالخطأ، مَن يستخدمها استخدام سلبي بهِ ضرر وضرار.

لم يُعجبهُ حال البعض من الذينَ امتهنوا الدياثة، ورضوا الذُلّ، وقبلوا الهوان.

جلسَ على المقهى كَعادتهِ كُلّ عُطلة، وأخذ يُلقي شعرهُ على الحاضرين كما تعودوا منه:

كبّس، كمان كبّس

ولم ف مشاهدات

اتعري وأنت ارقص

زمن الأدب ده فات

زمن العبيد ليه رجع

وللشباب بالذات

مكسب رخيص

وبترخص أنت

وكُلّه ف منصات

يا حزين وشاعر بالأسف

يا معجبة بيه وبشغف

ما هو كُلّ ده راح يتنسف

لو باقته ناقصة ميجات

ما هي أوضة واسعة وكُلّه ماشي

ع التاني بيدهوس

كبّس كمان.. كبّس!

خرجَ آشماداي إلى العراء، ينظر إلى حال بني آدم، شامتًا فيهم، يراهم هو ولا يرونهُ هُم.

ســـــاءت الأخـــــلاق؛ حـــــينَ لهثـــــوا خلـــــف رغبـــاتهم، ســـاعين فـــي تحقيقهـــا بـــأيّ ســـبيلٍ كان.

ســـخرَ مـــنهم ضـــاحكًا حـــينَ رآهـــم يبـــذلون جهـــدهم فـــي غيـــرِ موضـــعه، بـــل ويُطيعونـــهُ دونَ رؤياه!

لـــم تـــدم شـــماتتهُ طـــويلًا وامتقـــع وجهـــه؛ حـــينَ رأى شـــابًّا يتلـــو القـــرآن بصـــوتهِ الخاشـــع المُطمـــئن، التـــفَ النَّـــاس حولـــه، مُنصتينَ لآي الذكر الحكيم.

تـــلا علـــيهم مـــا فـــتحَ اللَّهُ بـــهِ عليـــهِ مـــن أواخـــر ســـورة القيامـــة، ثُـــمَّ حـــدّثهم واعظًـــا بأســـلوبٍ ســـهلٍ ووجـــهٍ بَشـــوش: بِسْـــمِ اللَّهِ والحمـــدُ للَّهِ ثُمَّ الصلاة على حبيبهِ ومُصطفاه، وبعد.

أمَـا وقـد علمـتم حقـد إبلـيس علـى أبـيكم آدم _عليـهِ السّـلام، فـلا تغفلـوا فـإنَّ الغفلـة هـي مدخل كُلّ شَّيطان.

عـداء إبلـيس لبنـي آدم باقيًـا مـا بقيـت الحيـاة، باسـتطاعتهِ النصـر علـيكم فـي حالةٍ واحدة، تساءلَ الحضور: وما هي؟

ردَّ الـواعظ البَشـوش: خلقنـا اللَّهُ سُـبحانَهُ وتعـالى، وزودنـا بتحصـيناتٍ تقينـا شـرّ إبلـيس وولـده وجُنـده؛ تكمـن تلـكَ التحصينات بطاعتهِ والإذعان لهُ.

فالصـلاة صِـلة ومحبّـة، وقُـرب وأمـان، والصـوم جُنّـة وقـوّة، والصـدقة نـور وبرهان.

والقـوّة والمنعـة تكمـن فـي تـلاوة القـرآن، وذكر اللَّه عِفّة للقلبِ واللسان.

إنْ فعلتم فلن يكونَ لديكم وقت فراغ، يدخل منهُ الشَّيْطَان.

سألَ سائل: وماذا عن العاصي الندمان؟

ردَّ البَشوش: ذلكَ حبيب الرحمٰن.

سأل آخر: وهل للكبائرِ توبة؟

ردَّ البَشوش: لكُلّ كُلٍّ توبة ما اجتُنبَ الشرك باللَّه.

ثُمَّ تابعَ بصوتٍ عذب: أنتم خلفاء اللَّه في أرضه، أمَّا بنو إبليس فلا مكان لهم على أرضه، هُم حقدةٌ علينا، يُبغضوننا، ويُحاولونَ عرقلة وصول الخير إلينا.

أساليبهم خداعة، أفكارهم ذاهلة، بضاعتهم مُزجاة، ظاهرهم قوّة وباطنهم خواء!

لا تكونـــوا عونًـــا لهـــم علـــى بعضـــكم الـــبعض؛ فتُعيّـــروا العاصـــي بعـــدَ توبـــة، وتـــذموا العائـــد بعـــدَ غُربـــة، وتســـخروا مـــن مُجاهـــد نفســـه، وتمدحوا خائن نفسه.

أنـــتم خلفـــاء اللَّه فـــي أرضـــه، كونـــوا نِعـــمَ الخليفة لا بئسها.

نظـــر إلـــيهم فأســـرّهُ مظهـــرهم؛ إذ زيّنـــت البسمة وجوههم.

سألهُ سائل: ما اسمكَ يا مولانا؟

ردَّ البَشوش: حسن شبل!

زمجـــرَ آشـــماداي حتّـــى اهتـــزت الأرض مـــن تحتـــه، شـــعرَ بأنَّـــهُ لـــم ينتـــهِ مـــن مهمتـــهِ بعـــد، كما لم يُحقّق النصر المرجو.

عَلِـــمَ أنَّ العقبـــة الوحيـــدة التـــي تقـــف بطريقه، تكمن في وجود حسن وأمثاله.

صـــرخَ بغضـــب: أنـــا المُفضّـــل لا حســـن، أنـــا ابـــن النّـــار وهـــو ابـــن الطـــين، لـــن يســـتطيع هزيمتي مهما فعل.

وأخـــذَ يُبـــاهي بنفســـه، علّـــهُ يتناســـى خيبـــة أمله:

الكُلّ دوني

أنا الجميع

لا أنحني

بدهائي أسوق القطيع

الكُلّ دوني

أنا الوحيد

فخلالي يسعد الجميع

فقط أُشير لاأستشير

بيداي أصنع الربيع

هيّا اتبعوني إنّني

أتباعي في حصنٍ منيع

تنازعوا، تقاتلوا

تبغاضوا، أو ارحلو

عن جنّتي أبهى صنيع

قدّموا قربانكم

الكُلّ يأتي خلفكم

وأنا النجاة لمَن يضيع

لي ثأر فيكم عندكم

أجدادكم أسلافكم

أُناس منهم لم تُطيع.

لبيكَ سيّدي.

قالها آخذًا وضع الإنحناء.

نظـــرَ إليـــهِ آشـــماداي وتـــابع: خـــادمي المُطيـــع، ومُعـــاوني فـــي تنفيـــذ مهمتـــي.. (تاج السرّ) حبيب مولانا المُعظم.

مُلاحظة:

علـــى مَـــن يرغـــب فـــي معرفـــة قصّـــة (تـــاج السرّ) الرجوع إلى رواية (معبد أَبَدُّون).

تمّت بحمدِ اللَّه.

مريم توركان